سكة سفر
رحلة في قطار الحياة
فاطمة الكحلوت
ArabBook.Com
مكتبة الكتاب العربي

سكّة سفر

رحلة في قطار الحياة

فاطمة الكحلوت

حقوق النشر والتصميم محفوظة

ArabBook.Com
مكتبة الكتاب العربي

1444هـ - 2023م

مقدمة

الحمد لله الذي قدر لي كتابة هذا الكتاب والذي يستطيع القارئ من خلاله أن يتجول في الحياة وأن يفهم الدروس والعبر في طرقاتها ويستطيع أن يستمر في حياته بالطريقة التي تسعده وتجلب له الراحة والطمأنينة، حاولت أن أجمع الأسس التي يمكن للمرء اتباعها للحصول على السعادة وليفهم المغزى الحقيقي من وجوده على هذه الأرض وكيف يحسن التصرف ويسلك طرقاته بشكل بسيط دون تعقيد، كما أنني وصفة الحياة بأنها رحلة في القطار وفي مرحلة ما تتوقف هذه الرحلة وتنتهي، أتمنى أن ينال على اعجابكم.....

الشكر الكبير لغاليتي وقرة عيني أمي والتي لم تتوقف يوما عن مساندتي ومشاركتها في تقديم الأفكار بشكل أوسع وأجمل كما أنها ساهمت في إضافة الكثير من الأمور التي قد غفلت عنها.

مايو 2023م

الفصل الأول

حياتك عبارة عن رحلة وما عليك إلا السفر، تمر السنوات وتتغير الظروف والأشخاص والأحداث دون أن تلاحظ ذلك بشكلٍ دقيق، وما إن تجلس وحدك حتى تتذكر كل شيء مررت به لتعرف كم أصبحت تختلف عن السابق فكم حدثت معك الكثير من الأمور من النجاحات والخسارات والكثير من مشاعر السعادة والحزن التي جعلت منك شخصاً آخر يفكر بنفسه أكثر ويضع نفسه في سُلم الأولويات، مرورك في الكثير من التجارب يجعلك تحاول فهم نفسك واستيعاب كل ما يدور حولك، وكل ما أردته في كتاب سكة سفر أن نتجول في الحياة لنأخذ المعنى الحقيقي في كيفية الشعور بلذة الأيام وفهم تقلبات الظروف والعثور على السعادة مهما شعرنا باليأس وضاقت بنا طرقاتنا، لتكن رحلتنا جميلة مليئة بالأحداث والأشخاص والعبر نسافر بأعماق قلوبنا إلى حيث نحب ونريد، لنجد في النهاية بأننا نستطيع رؤية جمال الأشياء من بعيد دون أن نحاول نزعها من أماكنها ودون أن نتمسك بمكان واحد ونتثبت به في وقت تكون فيه الرحلة مستمرة والقطار مستمر في السير والرحلة لم تنتهي بعد فعلينا أن نرخي أيدينا ونكمل مشوارنا ونقوي عزيمتنا لنتخطى المحطات الصعبة ولنستمتع في الأماكن الجميلة لنكتب بعدها قصة نجاحنا بكل فخر وسعادة.

في كل مرحلة من مراحل الحياة نجد أنفسنا في مكان مختلف عن السابق، نكافح من أجل الاستمرار، نستند على أنفسنا أكثر من قبل، نحاول أن نجد برّ الأمان في داخلنا لأننا نريد أن ننعم بالسلام الداخلي والراحة من ضغوطات الحياة وتراكم المسؤولية وتزاحم الأحداث.

وعلى الرغم من وجود الكثير من المعيقات التي تؤثر بنا إلا أننا نحاول جاهدين أن نتخطى كل شيء لنحقق ما نريد ونصل إلى المكانة التي نحلم بها دوما، ولعل أجمل ما فينا ويميزنا أننا نفشل ونعود لنبدأ من جديد لنثبت دوما بأن الإصرار والعزيمة خطوة من خطوات السير على هذه الحياة ومهما وصلنا إلى نقطة النهاية في شتى أمور حياتنا يبقى شيء ما يتمسك بنا ويجعلنا نبدأ من جديد.

لماذا تغادرنا محطات السعادة أيام وأشهر وسنوات ونعجز أوقات عن دفع ضغوطات الحياة وتقلباتها بعيدا عنا ونتوقف عن ممارسة الأشياء التي نحبها ونكابر على حساب أنفسنا ومن أجل أن تمر الفترات الصعبة من حياتنا علينا أن نتحلى بالصبر وذلك لكيلا تؤثر على مستقبلنا بشكل سلبي يفقدنا طاقتنا في الاستمرار وبناء الأحلام وتحقيقها.

فقد تمر السنوات وتموت الأحلام أو تتغير أو تتلاشى لأننا نكون قد وصلنا لمرحلة من عدم القدرة على تحقيق ما نحلم به رغم المجهود والتعب الذي نبذله لأجلها فما يكون الحل إلا التوقف عن السعي لفترة قليلة من الوقت ونأخذ قسطا من الراحة نحاول الاهتمام بأنفسنا وبأمور أخرى حتى نستعيد طاقتنا من جديد لنبدأ مرة أخرى بأفكار جديدة وبطرق أخرى، وقد يكون التوقف عن السعي وملاحقة الأمور حلاً لجعلها تسير بسلام وبأقل ضرر دون وضع أي مجهود يزيد من حدة وسوء الأمور لأن عدم راحتنا تجعلنا نختار بالطريقة الخطأ ونقوم بالتنفيذ بالطريقة الخطأ مما تجعلنا أكثر ارتكابا للأخطاء وأقل ثقة بالنفس.

كل يوم في حياتنا عبارة عن رحلة نستيقظ صباحا نجهل ماذا سيحدث معنا، تتشابه الكثير من الأشياء وتتكرر كالعادات والروتين اليومي ولكن هنالك أشياء تحدث فجأة فتغير مسار يومنا، لا نتوقع حدوثها فتحدث.

أحد الأشخاص أثناء ذهابه إلى العمل حصل معه حادث سير أدى إلى توقفه عن العمل لمدة أشهر، وآخر كان يعمل في شركة ما وعندما أنهى أخر يومٍ فيها وخرج من الباب التقى بصديق قديم قدم له فرصة عمل جديدة أفضل من عمله السابق، وأحدهم كان يذهب كل يوم للمستشفى ليطمئن على ابنه وفي اليوم الذي قرر عدم الذهاب اتصلت به الممرضة لتخبره بأن ابنه استيقظ من الغيبوبة، وهكذا هي الحياة عبارة عن مفاجآت لا يمكن لأحد أن يتوقع حدوثها ولكن علينا أن نعيش بإيمان وتوكل على الله بأن كل ما يصيبنا هو خير لنا وأفضل مما نتمنى ونتوقع.

قد يسير يومك بشكل آمن ومطمئن ويعكر صفوة يومك شيء ما أو خبر سيئ يأتيك ليجعلك تدعو الله وتتقرب إليه لتعلم أن حالك لا يدوم إلا بالحمد والشكر لله عز وجل فلا يصيبك أي غرور لما تملك أو أي خوف بما سيحدث لأن أقدار الله تجري عليك وما عليك إلا الرضى والايمان بأن في النهاية لن يحدث إلا ما كتبه الله.

من أجمل الأمور التي تصادفنا في الحياة الأشخاص الطيبين الذين لا يَملون من وجودنا ويفتقدون غيابنا أولئك الذين نجدهم يمسكون بأيدينا لنتجاوز أزماتنا وأوجاعنا نجد بأن خسارتهم لا تعوض بسهولة وذلك لاحتياجنا لهم ولأننا بطبيعتنا البشرية نشعر بالضعف فنحتاج إلى اكتافهم لنستند عليهم ولنكمل مشوار الحياة وأجمل ما نجد فيهم أنهم يزرعون في قلوبنا السعادة والأمل ويفخرون دوما بنجاحنا وسعادتنا، وقد يظن الكثير من الأشخاص بأننا في زمن يخلو من الطيبة والأشخاص الطيبون وذلك بسبب المصالح والظروف التي أجبرت كل

شخص أن يبحث عن حياته الخاصة دون الاهتمام بالآخرين ولكن الفطرة السليمة تجذبنا إلى الأشخاص الطيبين وتجعلنا نعثر عليهم مهما تباعدت المسافات بيننا وبينهم.

تعلم أن تطهر قلبك من نزوات الحياة ورغباتك ومن اهتمامك بالأمور الزائفة لتجعل اهتمامك الأكبر في أن تكون خليفة الله على الأرض بالطريقة التي يريدها الله، أن تنجح في اختبار الحياة بأن تعيش على الطريق الصحيح الذي يجلب لك السعادة والطمأنينة والراحة لأن أوامر الله حق وتعطينا السعادة وكل ما نهى عنه يجلب الحزن لصاحبه ويسبب له المتاعب، وحين يكون قلبك طاهر فإنك تستطيع أن تعبر طرقاتك بكل راحة حتى في أوقات الشدة ستتحلى بالصبر والشجاعة لأنك متوكل على الله راضٍ بأقداره تعلم بأن نهاية العسر يُسر وفرح وسرور.

المعاناة الحقيقية للإنسان حين يقنع نفسه بأنه غير سعيد من خلال تذمره الدائم والشكوى المتكررة لأبسط الأمور التي يمر بها، لذلك قد يستطيع المرء ترتيب نفسه من الداخل ويهيئها لتكون قادرة على الشعور بالسعادة وملاحظتها حين يخبر نفسه بأن حياته أفضل من غيره والمكان الذي يسكنه أفضل من أماكن أخرى، كل ما عليه هو أن يعرف كيف يلاحظ النعم التي تحيط به والأشياء التي يمتلكها ولا يملكها غيره.

قد تمتلك العافية وغيرك يتمناها وقد تمتلك عائلة وغيرك يفتقدها وقد تمتلك المال وغيرك محروم منه فهلا نظرت إلى ما تملكه وكففت نظرك عما لا تملك.

إن داهمك الحزن فاحزن ثم عُد إلى طبيعتك وإن شعرت بالسعادة فافرح من أعماق قلبك دون أن تحمل هم الغد، تعود أن تعيش يومك بنفسك وافعل الأشياء التي تحبها وترغب بها وأن تعطي مجالا لنفسك للاسترخاء وأخذ قسط من الراحة بعيدا عن ضجيج الحياة.

هل ندرك بعد فوات الأوان أننا أرهقنا أنفسنا في التعثر بأشياء لم تكن تستحق كل هذا الاهتمام وتلك اللهفة، وفي النهاية نكتشف أن كل اسباب حزننا كانت بسبب توقعاتنا ومشاعرنا ولهفتنا تجاه الأشياء، لأننا أحيانا نحلم بأشياء لم تكتب لنا ونحاول الحصول على أشياء ليست لنا وتغلبنا المشاعر فنتوقع الكثير من الأشياء ونشعر بالخذلان إن خابت توقعاتنا وإن أبصرنا جيدا سنجد أن ظروف الآخرين واوقاتهم تجبرهم على المضي بطرقات لا تلتقي مع طرقاتنا.

تجولت في الحياة عرفت أشخاص يحبون العزلة ويفضلون البقاء بمفردهم قد لا يكون لديهم رغبة بالعزلة إنما بسبب عدم وجود أشخاص يفهمون رغباتهم، يستمعون إليهم بكل انصات دون أن يشعرهم بالارتباك وبالتثاقل.

العزلة والشعور بالوحدة تفرض سيطرتها على الفرد تجعله يوما بعد يوم يبتعد عن العالم يمضي يومه لوحده يشعر بأن من الصعب أن يعثر على أشخاص يفهمون رغباته وهذه العزلة من النوع الذي يسبب الأمراض النفسية بسبب استعمارها للمرء بعكس الطبيعة البشرية التي تفرض العيش والتعايش مع الآخرين، لذلك علينا أن نفهم ونتفهم غيرنا لنستطيع العيش والتعايش مع الآخرين وحتى نفهم طبيعة العلاقات بهم وتكون عبارة عن سعادة تكبر بها سعادتنا وملجأ آمن لأحزاننا.

قد تؤلمنا مرارة الظروف وخيبة التوقعات ويعيدنا من جديد ذلك الأمل الذي يدق بابنا حين نصاب باليأس من كل شيء، كم تؤلمنا الخيبة حين تتراكم وتتزاحم في داخلنا وتمحو من طريقنا كل ما هو جميل.

أغنية واحدة تجعلك تسافر بعيدا، تعيد إلى مواقف مررت بها ومواقف تحلم أن تعيشها، تدفعك إلى التأمل من جديد أو ترمي بك إلى قاع من الأحزان، كلمات الأغاني كتبها شاعر ومؤلف رأى تلك الحالة فشعر بها وكتب عنها أو عاش تلك التجربة بنفسه فسطر سطورها فنجد تشابه كبير بين المواقف والأحداث التي يمر بها البشر وكأنها سلسلة تتكرر وتعيد نفسها بشكل آخر مع أشخاص مختلفين فلكل شخص تجربته الخاصة به التي تصقل شخصيته واهتماماته وقدرته على التجاوز ومدى قدرة تحمله.

هل سمعتم ذات يوم عن مرارة البقاء أن تبقى مجبرا على البقاء وكلك رغبة في الرحيل، أن تحاول جاهدا أن تسافر بنفسك بعيدا حيث تسافر بك الاغنيات حاملاً تعبك وجهدك وكل ما يؤلمك على اكتافك لتبدأ من جديد.

على هذه الحياة ننتصر على أنفسنا حين ندفع ثمن كبير للرحيل وبعدها نكسب أنفسنا عمرا كاملا، كم هنالك أشخاص عاشوا بخوف من الخسران والفقراء وقرروا أن يكملوا حياتهم بصمت مستسلمين للواقع على مبدأ أن الحياة أيام وتمضي دون مراعاة أن المرء يستطيع أن يحارب من أجل أحلامه وطموحاته وما يرغب به ليعيش كما يريد ويشعر بالسعادة حين يذهب حيث يحب ويفعل الأشياء برغبته.

لا تتوقف عند نقطة معينة اذا فشلت في أمر ما دع هذه قاعدتك الأولى للنجاح، لا تقف كثيرا غير وجهة نظرك إلى شيء آخر حتى لا تهدر وقتك في أمور تجلب لك المشقة وتزيد عليك عناء الطريق.

قد تذهب في رحلة إلى مكان ظننته جميلا وتتفاجأ أن المكان لا يناسبك وليس بالجمال الذي توقعته غير وجهتك إلى مكان آخر ترتاح فيه ويشعرك بالسعادة والرضى. قضيت سنوات من عمرك في عمل لا تجد فيه أي رفعة أو ترقية فكر في الأعمال التي تستطيع أن تضع فيها إبداعك وشغفك وتحقق لك مكاسب مادية ونفسية، هل تعيش في مكان غير آمن وغير مستقر تكثر فيه النزاعات اهجره وسافر إلى مكان تجد فيه طمأنينتك وراحتك.

الفترة القصيرة التي تتوقف عندها هي أكثر الفترات التي ستؤثر عليك فيما بعد لذلك كلما لملمت نفسك ونهضت بسرعة وغيرت وجهتك كنت أكثر قوة في تجاوز العقبات وإكمال محطات سفرك، لأن الوقت الذي يحزنك ويضعفك يأخذ جزءا من طاقتك وقدرتك على الاستمرار فهو يضعفك بطريقة تجعلك أقل اقبالا نحو الحياة وأكثر خوفا من الفشل ومن المجازفة وتجربة الأشياء الجديدة ففي هذه الحياة كسب وخسارة وأشياء ناقصة لا تكتمل وأخرى تكتمل لذلك إن الوقوف عند الخسارة وعدم القدرة على المضي نحو الأمام خسارة أخرى للوقت والفرص المتوفرة، فهنالك أشياء تأتي مرة واحدة ثم بعدها تأتي فرص أخرى لكنها ليست بمستوى تلك الفرصة التي كان من المفترض استغلالها بالشكل الصحيح، لذلك علينا أن نؤمن بذاتنا وقدرتنا على المضي إلى الأمام رغم صعوبة الظروف وتقلباتها.

لتكمل رحلتك عليك أن تتحلى بالصبر، أن تملأ قلبك بالإيمان والثقة بأن كل ما يصيبك من خير أو ضرر مقدر لك عند الله وأن تغض النظر عن النواقص وترضى ليرضيك الله، قد ترضى في ظروف من الصعب أن يتحملها غيرك كأن يبتليك الله في صحتك أو في الفقدان أو الفقر لكنه يعلم بأنك ستتحمل تلك الظروف والمعيقات ليضعك بعدها على الطريق الصحيح وفي المكان المناسب لك، لم يسلم أحد من الدنيا إلا وقد ذاق مرها وحلوها وسعى في طرقاتها ولكن السعيد من توكل على الله وترك الأقدار تجرى كما كتبها الله فكان قلبه مطمئن من كل شيء يمر به.

إن أردت أن تحصل على شيء ما فتوقف عن انتظاره وأبدأ بالتركيز على شيء آخر وتأكد بأنه سيأتي إليك لا محال، فأكثر ما يرهق المرء هو الانتظار أن تغض النظر عن أمور حياتك وتنشغل بانتظار شيء واحد ومن المحتمل بأنه لن يأتي في الوقت الذي تريده وبالطريقة التي تتوقعها.

وجدت في الحياة أشخاص بسطاء يعيشون يوما بيوم لا يرهقون أنفسهم في التخطيط للمستقبل ولا يرهقون أنفسهم في الوقوف عند كل شيء، يحاولون أن يعيشوا يومهم بكل ما فيه.

ضع الأشياء الجميلة في صندوق مفتوح وضع الأشياء الحزينة في صندوق مغلق ولا تحاول فتحه مرة أخرى لأن جميع الأحداث التي نمر بها يبقى تأثيرها علينا ولو بعد حين فإذا أحكمنا إغلاق

صندوق الذكريات الحزينة والمؤلمة تخلصنا من تأثيرها السلبي على أيامنا وذلك لأننا نريد أن نشعر بالسعادة أن تمضي حياتنا دون الوقوف عند أمر ما.

لكل شخص أسلوبه في الحياة فهنالك أشخاص يؤمنون بأن نهاية كل طريق بداية شيء جديد يجب أن يبدعوا فيه وأن يشعروا بلذته وهنالك أشخاص يصل بهم الأمر إلى الاكتئاب وأمراض نفسية بسبب فقدانهم القدرة على مواصلة الطريق.

تزوجت امرأة من رجل لا تحبه وانجبت منه ابن واحد وبعدها حصل الطلاق، توفيت والدتها فأصيبت بعزلة لم تستطع أن تحمل ابنها وتعتني به لمدة عامين بسبب الحزن الذي أصاب قلبها وحين سمع رجل كبير في السن قصتها طلب منها أن تحضر للحديث معه فقال لها : ابنتي ان بقيت في نفس دائرة الحزن فلن تخرجي منها أبدا وعزلتك وحزنك لن تغير شيء والعمر يمضي وعليك أن تكملي حياتك من أجل ابنك بقيت كلمات الرجل تدق مسامعها حتى بدأت تتحرر من حزنها فأكملت دراستها وعملت معلمة وربت ابنها وعلمته ومضت بهما الحياة وكانت كلما وقعت في مشكلة تذكرت كلام ذلك الرجل بأن المشكلة كأنها دائرة وإن خرجت منها ستكون خلفها ولن تؤثر على حياتها، وهكذا الحياة تجعلنا نضع أحزاننا وهمومنا ونمضي في طرقاتها.

قد تفشل في مشروع ما ويمضي وقت فتتغير الظروف ويطلب أحدهم منك أن تبدأ مشروعا آخر فترفض ذلك خوفا من تكرار الفشل فتكون قد حكمت على نفسك بالفشل قبل أن تبدأ، تذكر أن الوقت له دور كبير في الحاضر والظروف تتغير وكل ما فسد في الأمس يمكن إصلاحه وليس من الضروري أن تبدأ بمشروع ضخم أو هدف كبير عليك أن تصعد السلم درجة درجة، هي مجرد أفكار تستطيع أن تبني عليها طرقاتك فإن سلمت نفسك للخوف وللعزلة فإنك ستبقى في مكانك للأبد وإن سعيت لنجاحك ستنجح ولا بد من ذلك.

كل شيء يختلف عن غيره، تجربتك تختلف عن تجربة غيرك حتى وإن تشابهت في بعض النقاط لأن كل شخص له طريقة في الإدارة والعمل والتعامل مع الآخرين فلا تحكم على نجاحك من خلال تجربة غيرك حاول أن تتعلم من أخطاء الآخرين فقط وأن تسير وفق أسس سليمة تضمن نجاحك في كل طرقات الحياة وحاول أن تأخذ العبرة لترتقي بنفسك إلى مستوى أفضل.

إن أهم الأسس التي تضمن سعادتنا ونجاتنا من كربات الحياة أن نؤمن بذاتنا ونثق بقدراتنا وأن نمد يد العون لغيرنا، ما ينجينا حقا من كرباتنا وأحزاننا ما نقدمه للآخرين في شدائدهم ومدى وقوفنا إلى جانبهم ومساندتهم، أي ما تفعله يعود إليك بطريقة ما وفي وقت ما، قالت

فتاة ذات يوم تزاحمت الأوجاع في داخلي وبدأت أبحث عن ملجأ يأوي أحزاني فذهبت إلى الله حتى شُفيت جروحي كلها وحين ساعدت شخصا لا أعرفه ساعدني أحد لا أعرفه أثناء سفري وحين مسحت دموع غيري وجدت من يمسح دموعي.

أشياء بسيطة تفعلها كل يوم تعطيك السعادة وتزيد من ثقتك بنفسك وهي أن تبدأ صباحك بتقبيل جبين والديك، أن تبتسم في وجه الأشخاص الذين يعبرون من طريقك، أن تساعد غيرك ولو بشيء بسيط وأن تكون الخير الذي يعم المكان والسعادة التي تنثرها لمن حولك، تعلم كيف تكون بسيطا في احتياجاتك ورغباتك وتعاملك مع الآخرين وفي نظرتك تجاه الحياة وما فيها لأن الأشخاص الذين استخدموا أسلوب التعقيد في حياتهم أصبحت متطلباتهم بعيدة عنهم وكأن كل ما يرغبون في الحصول عليه بعيد جدا عنهم، حتى في علاقاتهم مع الآخرين وجدوا بأن هنالك فجوة كبيرة بينهم، لأن التعقيد وتصعيب الأمور يجعلها غير مكتملة وغير واضحة حتى في العمل فإن التخطيط بشكل كبير والتفكير بشكل مرهق يفقد لذة التنفيذ وسعادة الوصول إلى الهدف المرجو منه لذلك البساطة أجمل بكثير من التعقيد فهي تجعل الطرقات ميسرة وبسيطة وسهلة ونستطيع تجاوز عقباتها دون أن تؤثر على اقبالنا نحو الحياة ومدى محبتنا للوصول الى ما نريد.

افعل كل شيء جميل واتركه سيأتي يوم ويعود إليك، ستجني ثمار تعبك وستفرح لأنك تنسى وهنالك ربّ لا ينساك سيعطيك ويعوضك عن كل شيء مررت به لذلك أحسن الزرع لتحصل ثمار تعبك، ذات يوم ستكون فخورا بنفسك لأنك لم تؤذي أحد ولم تسرق فرحة أحد كنت الخير الذي مرّ في طرقات الآخرين.

لنتعلم كيف نسامح الآخرين ونسامح الفرص التي غادرتنا للأبد لأنها لم تكن مقدرة لنا منذ البداية، لترتاح حين نطلق سراح الأشياء من داخلنا ونعطي مجالا لدخول فرص أخرى، فحين نستمر في حبس المشاعر داخلنا فإننا نبقى سجناء لها لأنها كلما مرت وكبرت في داخلنا آلمتنا وسرقت منا فرحة الحاضر، ولنكن على اتفاق بأننا سنمر بكافة المشاعر الايجابية والسلبية وأن كل شيء سيمر مهما كان لذلك علينا ألا نبقى رهائن للأحداث السلبية.

قد تمر بأحداث صعبة تغير مجرى حياتك وتقلبها رأسا على عقب بعدها تبدأ بترميم حياتك من جديد، حاول أن تترك كل شيء خلفك ألا تكرر ما حدث لك كثيرا وتأكد بأن الوقت كفيل بأن ينسيك كل ما مررت به ولن يبقى في الذاكرة سوى شيء بسيط ولن يؤثر عليك على المدى البعيد.

قد يساندك من لا تتوقع وجوده في حياتك ستعيد ترتيب الأشخاص وكل الأولويات من جديد لتبدأ بعدها فترة جديدة بشخصية أكثر نضوجا من قبل تدرك فيها أن السند الحقيقي هو الله عز وجل وأن نفسك لها عليك ألف حق وحق وعليك تقويتها بالإيمان بالله للاستمرار على الطريق.

كلما ملأت قلبك بالرضى والايمان بأقدار الله سيكون بإمكانك أن تسامح غيرك لأنك ستكون متأكد بأن النفع والضرر بيد الله فلا يمكن لأحد أن يؤذيك إلا بأذن الله لذلك حاول أن تأخذ الدروس والصبر من المواقف التي تمر بها وأن تسامح نفسك وغيرك لأن المسامحة أشبه بإطلاق سراح العصفور من القفص فإذا بقي الشخص في داخلك فإنك ستبقى محصور وسجين للمواقف التي صدرت منه أما إذا أطلقت سراحه ستعطي مجالا لدخول أشخاص جدد في حياتك، الأمر أشبه بشراء راحتك وسلامك الداخلي الذي يؤثر على حياتك وطريقة تقبلك للظروف والأشخاص من حولك.

تجلس وحيدا في المقعد الأخير من القطار تتابع تحركات الركاب، تتأمل المناظر عبر النافذة وتعود لتحتضن نفسك وتشدُ على قلبك ليثبت، الجميع محاط بسور من الأحداث ومشاغل الحياة بينما تفكر بوضعك الحالي وإلى أين ستسير بك الأمور وإلى أين سيأخذك الطريق.

قم بتمرين الاسترخاء، أغمض عينيك وأرح قلبك وخذ نفسا عميقا دون أن تفكر بشيء وكرر ذلك عدة مرات، ستعلم بعدها أن بإمكانك أن تبعد عن نفسك المخاوف والقلق التي تحيط بك وأن بإمكانك أن تجذب الأشياء الجميلة إلى داخلك إن أعطيت نفسك المساحة الكافية من الراحة والاسترخاء والهدوء.

متى تكون الوحدة جميلة ومتى تصبح سببا للألم النفسي؟

في حياتك تعتاد أن تبقى محاط بأشخاص من حولك ولكن في بعض من الأحيان تصل إلى مرحلة من عدم الثقة بالآخرين وعدم الشعور بالأمان تجاههم وذلك بعد تجارب ومواقف كثيرة فتحاول أن تعثر على شخص واحد على الأقل يشعرك بالحب والطمأنينة والأمان فإن لم تجده ستشعر بالوحدة والألم لكن إن تعلق قلبك بالله فإنك ستنسى ألمك وحزنك سيشعرك وجود الله بقربك بلذة الحياة وأنك غير وحيد تستطيع أن تمضي بطرقاتك طالما هو موجود معك لذلك ابتعد عن أوقات الفراغ حتى لا تكون سببا في دخول الشيطان ووساوسه إلى حياتك، افعل شيئا جميلا تؤجر عليه يكون منفعة لك وللآخرين ويملأ وقت فراغك فدائما أوقات الفراغ تجلب

الحزن واليأس لأنه يمنعنا من رؤية الأشياء من حولنا فيأخذ طاقتنا التي يجب أن نضعها من أجل المستقبل ويحاصرنا بالذكريات وبالتدقيق اللامتناهي بالتفاصيل التي نمر بها.

حين نجلس وحدنا لماذا لا نعطي أنفسنا مجالا لنبدع في أمور نحبها وفي رسم لوحات جميلة نلونها بألوان الحياة فحين نبدع في الحفاظ على راحتنا ونعطي الأمور قدرها من الأهمية دون المبالغة فيها نشعر وقتها بان الطريق ميسر وسهل وكل العقبات يمكن أن تزول وتنتهي حين نقوي ذاتنا وندعم أنفسنا من الداخل ونؤمن بأن باستطاعتنا انجاز الكثير من الأعمال رغم صعوبة الظروف والمعيقات التي نمر بها.

الأشخاص الذين يكرسون حياتهم من أجل العمل تجدهم دائمي السعي والمحاولة في الوصول إلى المناصب العليا بشكل كبير على حساب علاقاتهم بالآخرين فيمضي بهم العمر دون أن يشعروا بسعادة الأيام فيجدون أن العمل قد سرق منهم السعادة والحب في اكتشاف الحياة والتطور بها لذلك من الأفضل أن نضع سعادتنا موضع الأولوية في طرقاتنا وطرق العيش فإن كانت وجهتنا جميلة وصريحة فإنها تعكس السعادة الى داخلنا فيظهر ذلك على تصرفاتنا ومدى اقبالنا نحو الحياة، لذلك الاستمتاع في كل وقت هو أمر تستطيع أن تدرب نفسك عليه وأن تملأ داخلك بالأفكار الايجابية وأن تستوعب الحياة بالطريقة الصحيحة وتفهم وترضى بكل ما يصيبك.

محطة القطار الأولى

سكة سفر (١)

توقف القطار ونزل أحد الركاب منه وغادرنا للأبد وهو يقول لزوجته إنني لا أريد الذهاب إلى تلك المدينة مرة أخرى، إنني أكرهها وكانت زوجته تهدئ من غضبه وتتوسله أن يهدأ فكانت تقول له أرجوك من أجلي سنذهب، لكنه لم يهدأ نام ليلة كاملة ولم يستيقظ بعدها، أصابني الخوف والقلق ذلك الشعور الذي لم يرحل عني سألت نفسي هل سننام يوما ما ولن نستيقظ أبدا، قررت أن لا أحزن أبدا.

طلب مني عامل النظافة أن أغادر مكاني لحين الانتهاء من التنظيف فوجدت مقعد فارغ بجانب رجل كبير في السن فذهبت إليه.

-سأجلس هنا إلى أن ينتهي عامل النظافة من التنظيف؟! هلا سمحت لي؟!

أزاح حقائبه وقال لي : تفضلي يا ابنتي

رجل تجاوز الستين من عمره، يرتدي قبعة على راسه ويضع بجانبه متكئة السجائر ويقرأ كتاب بين يديه، عريض الكتف وبشرته مائلة للون الأسمر كان غارق في قراءة الكتاب قلت له: إنها الغربة يا سيدي، أليس كذلك، نظر إلي وقال : نعم يا ابنتي.

العم توفيق

العمر: ٦٣ عاما

الطول: ١٧٥ سم

الوزن: ٩٢ كغ

العمل: تاجر

الحالة الاجتماعية: أرمل

عدد الأبناء: ٤ أولاد وفتاة واحدة

في عام ١٩٨٠ تزوج العم توفيق من السيدة زينب وكان زواجه تقليدي بعد أن توفيت حبيبته السيدة نور والتي رفض أن يحب بعدها أي فتاة، قصته مع نور لم تكن تشبه قصص الحب التي سمعنا عنها أو تلك التي نقرأ عنها في الكتب والروايات، عندما تخرج السيد توفيق من الجامعة أول ما فكر به هو عرض الزواج على نور ابنة عمه والتي كانت تعيش معهم خلال فترة دراستها الجامعية وهنا بدأت القصة.

كان السيد توفيق مسؤول عن نور أثناء ذهابها إلى الجامعة وإلى حين عودتها وفي أحد الأيام وفي الطريق قال لها مازحا سأتزوجك حين تتخرجين من الجامعة فقالت له ومن قال بأنني سأقبل بك؟!

-ترفضي الزواج مني؟!
-أجل، أرفض ذلك
-أذن، لن اوصلك إلى الجامعة مرة أخرى
-لا أريد ذلك منك أساسا، سأعتمد على نفسي
أوقفها السيد توفيق في منتصف الطريق وسار أمامها وقال لها انظري إليّ جيدا، أنا شاب جميل ومثقف وكل فتيات العالم تتمنى أن اتزوجها حينها أصيبت نور بنوبة من الضحك وقالت له : اقبل بك، سأتزوجك
ملامح السيد توفيق وهو يروي لي الموقف جعلته يبتسم يسافر إلى تلك اللحظة وقلبه حزين مليء بالاشتياق، أدركت كم أن فقدان الأحبة صعب ومؤلم في الحياة.
عاد السيد توفيق يسير جنبا إلى جنب السيدة نور وقال لها: هل حقا تقبلين الزواج مني؟! ضحكت واستدار وجهها أكثر فأكثر وظهرت الغمازة التي تزيدها جمالا وهي تقول له أقبلك، أقبلك لآخر العمر.
البراءة في وجهها كانت تجعل السيد توفيق يقع في غرامها أكثر فأكثر، قالت له سأعمل معلمة بعد الزواج لكنه رفض ذلك قال لها لن تعملي، أنا فقط من سيعمل وعاد الشجار بينهم.

-لن أقبل بك.

-سأتزوجك، وستكونين أجمل معلمة.

بقي الحديث يدور بينهم إلى أن وصلا الجامعة، لقد كان الطريق من المنزل إلى الجامعة هو طريق السعادة بالنسبة للسيد توفيق.

عاد السيد توفيق من عمله معلم الرياضيات في مدرسة الهمم للذكور والتي تبعد عن منزله قرابة ربع ساعة، حاملا حقيبة أوراقه ومرتدي الطقم الرسمي الذي يفضله عن غيره في اللباس وعندما دخل المنزل تفاجأ بوجود عمته سمية فألقى التحية عليهم جميعا ودخل غرفته ليبدل ملابسه وإذ يسمع كلام عمته سمية وهي تتحدث مع والدته عن رغبتها بتزويج ابنها سالم من السيدة نور وهذا ما جعل السيد توفيق يقف مصدوما من الكلام دون أي ردة فعل.

كيف تريد عمتي تزويج نور لابنها سالم وأنا الذي حفظتها في قلبي أكثر مني، حينها لم يتحمل كلامها فقال لها مقاطعا كلامها لوالدته – أنا أريد الزواج من نور وهي أيضا قبلت بذلك، احمر وجهها غضبا ونظرت إلى توفيق ووالدته نظرة مليئة بالكره والغضب ثم تماسكت نفسها كالعادة واختارت أن تعود إلى منزلها مبكرا.

وفي ذلك اليوم تحديدا أخبر السيد توفيق نية زواجه من نور وعزم على ذلك، ومضت أيام وأسابيع وأشهر ينتظر تخرج نور من الجامعة ليتقدم لها بشكل رسمي.

- هل أنتِ خائفة من الاختبارات؟! أم أن هنالك شيء يقلقك؟!

-أعطني يديكِ
امسك السيد توفيق يديها وضمهما وقبلهما ثم قال لها ستنجحين، هل شعرت بالارتياح الآن؟!
-شعرت بالحب، بالنجاح وبالأمل، هل ستتمسك بي هكذا عند النجاح وعند الخوف وعند الفشل؟!
أجل، سأتمسك بك وللأبد، نامي الآن.
قام السيد توفيق من عند سريرها بعد أن قَبّل جبينها ثم أطفأ النور في غرفتها وذهب إلى غرفته فقابلته والدته تريد التحدث إليه، جلس توفيق ووالدته على حافة السرير وبدأت تخبره عن وضع والده الصحي وأنه بحاجة إلى عملية جراحية في قدمه الايسر، أصاب الخبر صدمة كبيرة بالنسبة لتوفيق بأن والده إن لم يعمل العملية سيفقد قدمه وعد والدته بأنه سيفعل المستحيل لأجله وإن اضطر الأمر سينقله إلى دولة أخرى لإجراء العملية.
ام السيد توفيق كباقي الأمهات في عمرها الخمسين ترتدي الملابس الواسعة وتضع ربطة شعر على رأسها وتقضي معظم وقتها في المطبخ أو الجلوس مع جاراتها أو تشاهد التلفاز مع والد توفيق أثناء عودته من العمل في محل لبيع الأدوات المنزلية أو عودته من المقهى الذي اعتاد الذهاب إليه وقراءة الجريدة ومناقشتها مع أصدقائه، لم يشكو من أي ألم في قدمه إلا بعد أن وقع عليه على الأرض وأصيب بكسر وبعد مدة من العلاج لاحظ وجود الألم ذاته بل ويزداد فقرر الطبيب إجراء عملية أخرى له، الألم الذي أصابه لم يكن عائقا أمام ممارسته لروتينه اليومي

أو ذهابه إلى الجامع فقد كان رجل يحمل الإيمان في قلبه بأن كل ابتلاء هو خير له يجعله يتقرب من الله، وفي ذلك الوقت كان السيد توفيق بمثابة عكاز لوالده فقد كان يتكأ عليه في كل شيء، إلى أن جاء موعد العملية.

-هل جهزتِ كل شيء يا أمي من أوراق رسمية وهويات إثبات.

-أجل يا بني

-سآتي معكم، لن استطيع تحمل بعد عمي عني.

-حسنا، جهزوا أنفسكم إلى أن تصل السيارة.

-كيف المعنويات يا أبا توفيق، قالها مازحا لوالده.

-بخير يا بني، بخير ثم ضرب بيده على كتف توفيق وقال له بوركت يا بني، جزاك الله كل خير ثم نظر إلى نور وقال له ليكتبها الله لك ولتكن نصيبك.

نظرت نور بتوفيق وتبادلا نظرات مليئة بالحب ثم غمزها وحين وصلت السيارة وقف إلى جانبها وقال لها بصوت منخفض ستكونين أجمل عروسة.

جلس والد السيد توفيق بجانب السائق وجلس توفيق ووالدته ونور في المقعد الخلفي، كان الطريق إلى المستشفى يحمل خليط من مشاعر الحب والقلق تجاه العملية، وضع السيد توفيق يده على كتف والدته واحتضنها وقال لها سنعود بخير يا أمي وسنفرح كثيرا لا تقلقي، السعادة التي شعروا بها كانت تجعل قلوبهم تطير وتحلق إلى السماء.

الابتسامة العريضة على وجه السيد توفيق والغمازة التي ظهرت على وجه السيدة نور ولمعة عينيّ والدته كانت ستبقى للأبد لولا حادث السير المروع الذى حدث فقد اصطدمت بهم شاحنة كبيرة أدت إلى نقلهم جميعا إلى المستشفى ولم ينجو من الحادث سوى توفيق ووالدته أما والده ونور فقد انتقلا إلى رحمة الله تعالى، الصدمة التي غيرت حياة السيد توفيق ووالدته إلى الأبد.

عندما سمعت القصة من السيد توفيق تأكدت أن هنالك حدث ما يطرق أبوابنا يجعلنا بحالة من السعادة أو الفزع والخوف ذلك الشعور الذي يغير مجرى حياتنا ورغم ذلك فإن قطارات الحياة تستمر في السير دون توقف حتى أن هنالك أشياء جديدة ستطرق حياتنا دون أي تخطيط مسبق أو إنذار.

مضت ثلاث سنوات على وفاة والد توفيق وحبيبته نور والجرح عميق، البيت يخلو من صوت الضحكات والطعام ليس له نكهة، حضر السيد توفيق حقيبته للذهاب إلى المدرسة وحين نظر من نافذة غرفته شاهد شاحنة مليئة بالأثاث يقف عندها رجل وسيدتان وطفلين خرج من المنزل ليرى بوضوح الأشخاص كان جارهم القديم قد رحل من المنزل وهؤلاء المستأجرين الجدد

ينقلون أغراضهم إلى المنزل، أكمل السيد توفيق طريقه إلى المدرسة لقد تغيرت مشاعره ورغبته فلم يعد يرغب في الخروج من المنزل حتى.
في ذلك اليوم حين عاد إلى المنزل وجد السيدتان والطفلين متواجدون في منزلهم فألقى التحية ودخل إلى غرفته وبعد رحيلهم سأل والدته عنهم فقالت بأنهم الجيران الجدد فقال لها رأيتهم في الصباح.
-لقد كانوا هنا لحين انتهاء العمال من نقل الأثاث
-أتعلم يا بني إنها فتاة وزوجة أبيها والطفلين أبناء السيدة
سكت توفيق ولم يعلق على كلام والدته، ولم يهتم بهم.
وفي صباح اليوم الثاني سمع صوت الجرس فذهب ليفتح الباب فكانت الفتاة نفسها
-مرحبا، أنا زينب
-أهلا بك
-هلا أعطيت الفطائر لوالدتك
-أجل، شكرا لكِ
-العفو
-من الطارق يا توفيق
- هذه الفطائر من السيدة زينب
-يا لها من فتاة مهذبة لقد أعجبت بها ومن كلامها بالأمس.
خرج السيد توفيق من المنزل مودعا والدته وفي الخارج التقى مرة أخرى عند الباب بالسيدة زينب وسالم وحسن حينها سألها هل سيذهبون إلى المدرسة فردت عليه لم نقم بالتسجيل بعد، سأقوم بتسجيلهم في مدرسة الهمم للذكور فرد مقاطعا أنا أعمل معلما في هذه المدرسة.
-هل نذهب معا؟
-أجل، لا مانع لدي
أخذهم الصمت خلال الطريق، الصمت الذي جعل السيد توفيق يتذكر نور والطريق الذي كانوا يسيرون به كل يوم، اما الطفلين فلم يتوقفا عن الأسئلة-هل المدرسة جميلة؟! -هل هنالك حديقة؟! -هل المعلمون جيدون وكأن السيد توفيق يجيب تساؤلاتهم بينما تصاب السيدة زينب بالخجل من ذلك، وصلوا المدرسة فاستأذنت زينب لتعود إلى المنزل بعد أن طلب توفيق أن يكفل الطفلين ويقوم بإجراءات التسجيل لهم.
قال له سالم يا أستاذ كم أنت شخص طيب تشبه الاستاذ عمر فرد عليه – ومن هو الاستاذ عمر، تشاجر الطفلين معا – ألم تقل أمي لا تذكر اسمه.

- وما علاقتك أنت؟!
- - توقفوا يأ أولاد ماذا جرى لكم.
- الاستاذ عمر خطيب زينب
- لم أفهم لماذا تشاجرتم أذن
- لقد توفي في حادث سير وامي منعت ذكر اسمه أبدأ
- اهدأوا يا اولاد، نحن في المدرسة

السيدة زينب الانسانة الرقيقة والجميلة بيضاء البشرة ذات العيون الواسعة وشعر أسود يغطي ظهرها، ذات يوم خرجت تسير مع السيد توفيق للتسوق كانت تسير بحذر حين تقترب منها السيارات وكأن الخوف ما زال يسيطر عليها ويؤلمها حين تتذكر خطيبها وقد لاحظ توفيق ذلك فسألها هل تخافين من السيارات إلى هذا الحد حينها لمعت عيناها وقالت أجل أخاف كثيرا.

-هل الفقدان يخيفك كثيرا؟!

تنهدت وقالت أجل أو ربما العيش من دون الأشخاص الذين نحبهم حاول توفيق إدراك الموقف وتغيير الموضوع فسألها هل أكملت دراستك فقالت أجل وعملت معلمة لمدة عام كامل، تفاجأ وقال لها وماذا حصل بعد؟! فقالت لم يحصل شيء لأنه تغير كل شيء لقد قررت التوقف عن العمل نظر إليها توفيق متعجبا وقال لها -لا ترغبين بالعمل؟! هكذا أذن فأجابته لم أرغب به لكن زوجة أبي أصرت على أن أعمل وكنت قد اتفقت مع عمر على ترك العمل بعد زواجنا الذي كان من المفترض أن يتم ولكن الحادث حال دون ذلك، كان طريق العودة إلى المنزل يجعل توفيق بحالة من الصمت يفكر بشيء ما لم يسبق أن فكر به يسأل نفسه لو أن الحادث أصابه هو وبقيت نور على قيد الحياة هل ستبقى بحالة زينب فتاة مليئة بالتشتت والضياع والخوف من المستقبل.

مضت أيام ورن جرس الباب، فقام توفيق ليفتح الباب كانت زينب جاءت لتطمئن على والدته بعد أن مرضت وتم نقلها إلى المستشفى وبحمد الله كانت أوضاعها بخير ولكن بسبب تقلبات الجو والغبار تسبب لها بضيق التنفس، دخلت زينب عبر الممر المؤدي إلى غرفة والدته وألقت التحية عليها كانت ممددة على السرير وقام السيد توفيق بإحضار كرسي لها لتجلس عليه.

-كيف حالك يا خالتي ؟!

-بخير يا ابنتي، فليرضى الله عنك

-أحضرت لك هذا الشراب انه خليط من الأعشاب ستتحسنين عليه بإذن الله

-سلمت يداك

في ذلك الوقت كان السيد توفيق في غرفته يحضر الأوراق المدرسية للطلاب وحين عاد إلى غرفة والدته سمع كلام زينب وهي تتحدث عن والدتها التي لم تراها فهي توفيت أثناء ولادتها، بقي توفيق مصدوما عند الباب ينظر إلى زينب ووالدته ثم طرق على الباب وقال أسف على المقاطعة أريد سؤالك يا أمي عن أوراق احضرتها الاسبوع الماضي وتركتها على الطاولة؟! فأجابته نعم وضعتها على رف الكتب.

-سأذهب يا خالتي الآن وسأعود مرة أخرى.

قامت زينب عن كرسيها وقبلت جبين والدة السيد توفيق واستأذنت للخروج.

سأوصلك إلى الباب

سارت زينب أمام توفيق وعند الباب ارتدت حذائها وما إن رفعت عيناها عن الأرض وإذا بها تقابل عيناه الواسعة ذات اللون البني، تلك اللمعة في عينيه لفتت انتباهها، ثم تناولت معطفها وخرجت من المنزل.

عاد توفيق عند والدته احضر لها الماء لتشرب الدواء ثم جلس يتحدث معها.

-أراكِ أحسن يا أمي

-أجل بكثير والحمد لله

-تبتسمين حين تأتي زينب؟!

-ما أجملها من فتاة، طيبة القلب وسليمة الكلام وجميلة المظهر.

-سمعتها تتحدث عن والدتها

نظرت أم توفيق بابنها وضحكت ثم قالت له -اراك مهتما بها

-لا يا أمي إنها مجرد صديقة لا أكثر

ترك السيد توفيق والدته لترتاح قليلا وخرج من غرفتها وبدأ العمل في مكتبه يجهز أوراق العمل للطلاب ويحاول أن يجد طريقة جديدة لرفع مستوى الطلاب.

رن الجرس فقام من مكتبه ليفتح الباب فكان صديقه الاستاذ علي صافحه ودخل معه إلى مكتبه، الاستاذ علي الصديق المقرب لتوفيق كان يقضي معه نهاية كل أسبوع يتحدثون معا عن المدرسة وعن الحياة.

أخذ الاستاذ علي ساعة على المكتب ونظر إلى الوقت واعادها إلى الطاولة كانت العاشرة مساءا وإذ بتوفيق يأتي بالقهوة.

-ما زال الوقت باكرا لنتحدث طويلا، يبدو أن المطر قد توقف

-هل تذكرت يا علي عندما عدنا من الجامعة وكان الجو ماطرا فدخلنا المقهى وهنالك أعجبتك ريم تلك الفتاة التي ترتدي لباسا اوروبيا.

-يا لها من فتاة لم أرى بجمالها.
-لكنك ركضت خلفها كثيرا ؟ كم كانت المدة؟!
-أقل من سنة لكني عشت معها ذكريات حاضرة إلى هذا اليوم.
مضت الليلة هكذا بين الحاضر والماضي وصوت المطر، وكأن المطر يُحيي في قلوب الناس جميعا ذكريات وأمسيات وأغنيات، صوت ضحكات علي وغُناه وهو يردد أغنية طلال مداح بنور قربك أنا العاشق كانت تملأ أرجاء الغرفة هذا ما جعل توفيق يعيش حالةً من الحب.
وفي الصباح استيقظا على رائحة الفطائر المنبعثة من المطبخ.
-ما أجمل الصباح هنا تذكرني والدتك بأمي
-كل صباح هنا عيد
-تفضلوا، الفطور جاهز
-تسلمي يا خالتي
-بالهنا والعافية
رن جرس المنزل فقامت ام توفيق لتفتح الباب كان سالم يريد توفيق قال لهم بأن أخوه حسين قد وقع على الأرض ولا يستطيع الوقوف فذهبوا جميعا لرؤيته، شغل علي سيارته بينما ركب توفيق في الخلف حاملا حسين بين يديه قال له لا تخف أنت شجاع فرد عليه أشعر بوجع في قدمي، التفتت زينب والتي جلست في المقعد الأمامي وهي تهدأ من حسين وتقول له لا تخف يا صغيري.
كان علي مهتما بالطريق نظر إلى زينب وسألها كيف جرى الحادث فأخذت تخبرهم كيف وقع عن درجات السلم في الطابق الثاني وهو يحاول الصعود للأعلى، وصلوا المستشفى وحمل توفيق حسين وادخلوه قسم الإسعاف والطوارئ، جلست زينب على مقعد الانتظار وبقي توفيق وعلي يقفون في الممر إلى أن خرج الطبيب واخبرهم بأن هنالك كسر في قدمه الأيمن ويحتاج إلى عملية، وصل والد زينب وزوجة أبيها وبدأوا بالاستفسار عما حدث وتشكروا توفيق وعلي وبعدها استأذن علي بالرحيل، مضت نصف ساعة وبعدها خرج الطبيب ليخبرهم بنجاح العملية.
دخلوا إلى الغرفة قال حسين لأبيه -أنت هنا يا أبي، لقد عدت
-أنا هنا لأجلك.
وقف توفيق بجانب زينب اقتربت يده من يدها، نظرت إليه ونظر إليها ابتسمت له فقال لها أنا هنا دائما فتشكرته.

عرفت من كلام توفيق أن الحب يبدأ بالاهتمام ويكبر بالمواقف يكون صغيرا ثم تجعله الأيام والصعوبات عظيما، كما أنه يأتي في الوقت الذي نكون قد فقدنا الأمل في العثور عليه، شركاء العمر ورفقاء الدرب هم أشخاص وأرواح تضمن جراحنا وتشاركنا سعادتنا واحزاننا.
يبدو أن توفيق وجد في السيدة زينب ما يحتاجه من الاهتمام والحب وهي وجدت فيه ما يشعرها بالأمان والطمأنينة.
ذهب توفيق مع سالم إلى المدرسة وفي الطريق سأله هل أكملت دروسك يا سالم فرد عليه أجل ولكن حسين سيفوته الكثير من الدروس فقال له توفيق لا تقلق سنحاول أن نعوضه، سأله سالم هل ستأتي إلى منزلنا فرد عليه أجل، حينها ابتسم سالم وبدأت محبتهم تظهر للسيد توفيق لربما أصبحوا يرون أن توفيق هو البطل في نظرهم فكلما حصلت مشكلة ذهبوا إليه وهو لا يتردد في مساعدتهم.
-صباح الخير
-هلا صديقي
-كيف حالك اليوم هل حدث أمر ما في غيابي.
-لا تقلق لقد أخذت مكانك في الصف وكان الطلاب متعاونين معي.
-ما قصتك مع زينب؟! لقد رأيتها كيف تنظر إليك
-لا تفكر بعيدا، إنها مجرد صديقة لا أكثر
-أذن الأمر غير مهم بالنسبة لك
-لا، لا يهمني
وهي، لا تخبرني بأنك غير مهم بالنسبة لها
رفع حاجباه السيد توفيق وقال لا أظن أنني مهم بالنسبة لها، لكنه داخل الغرفة الصفية وحين بدأ بشرح الدرس للطلاب كان يردد في داخله بأنه غير مهم بالنسبة لها وأكمل شرحه للدرس لم يكن يعرف بأن نهاية التردد هو القبول، في ذلك اليوم قرر أن يقضي يومه بعيدا عن المنزل حتى يستجمع نفسه وأفكاره فغادر المنزل برفقة علي.
-إلى أين؟!
-إلى المطعم ثم نذهب إلى المقهى
المقهى الذي قرر توفيق أن يمضي يومه وليلته فيه، الأمطار في الخارج تجعل الجميع يلجأ إلى هذا المقهى هو ذاته المقهى الذي احتضن جميع مشاعرهم دون أن يكره ذلك أو أن يشعر بالاستياء من قصص الحب التي يمرون بها، لماذا يجتمع لحن المطر وصوت العود والقهوة في مكان واحد، ذلك الأمر الذي بقي عالق في ذهن السيد توفيق، لماذا نشعر بالذبول حين نتوقف

عن الحب بينما ننمو ونزهر به، وكأن كل شخص فينا يعرف مدى صعوبة الشعور بالوحدة والبقاء فيها لمدة طويلة، ومهما حاولنا أن نتكأ على أنفسنا ونجحنا في ذلك يبقى الحب هو الشعور الأجمل للاستمرار في الحياة.

-العزف جميل اليوم، والمكان مكتظ بالأشخاص

-وقلوبنا تكتظ بمشاعر الدفء

-الله عليك استاذ توفيق، لم أراك سعيدا كما اليوم

-حتى انا أجهل سبب فرحتي، لكنني أشعر بها.

نفث سجائره الاستاذ توفيق وقال لعلي: أتعلم يا رفيقي أن كل شيء في الحياة يجعلنا نفكر ماذا يحمل لي الغد؟! هل سأجد راحتي أم لا؟! هل سأعود إلى الحياة معافى أم لا؟! كل شيء يجعلنا نفكر بهذه الطريقة في وقت ما.

علي : كما أنه يجعلنا في حالة من الخوف من الفقدان والشعور بالوحدة

-مضت سنوات وأنا أتذكر والدي ونور والآن تخرج في طريقي زينب ولا أعلم من سيأتي بعدها.

-أتفكر في فقدانها قبل اللقاء؟! لا يجوز ذلك

-أهدأ يا صديقي؟! ما بك؟! لا يجوز ذلك

-لم أعد أعرف ماذا يجوز وما لا يجوز

-ابق متماسكا.....قويا

-سأبقى يا علي، سأبقى

تأخر السيد توفيق في العودة إلى المنزل، الشارع معتم وأضواء الشبابيك وحدها من تضيئ عتمة الطرقات، نظر إلى منزل السيدة زينب الطابق السفلي ثم إلى نافذة غرفتها المضيئة في الطابق الثاني ثم نظر إلى منزله ودخل، المنزل معتم أنار ممر المدخل وخلع معطفه عند الباب وتوجه إلى غرفته ألقى نفسه على السرير وبدأ يتأمل سقف الغرفة، يمر الوقت بسرعة ايام وليالٍ كان السيد توفيق يحاول أن يتجاوز كل ما مر به، الأيام التي عمل بها في النهار والليل من أجل أن يسدد الديون التي تراكمت عليهم من إيجار المنزل ومستلزماته، في تلك الليلة بينما كان عائدا من عمله بعد منتصف الليل يسير في الشوارع يبحث عن سيارة أجرة ليعود إلى المنزل وجد شخصين يتشاجران أحدهما يحاول إطلاق الرصاص على الآخر، توقف في مكانه ثم ضرب الرجل الذي يحمل السلاح بصندوق المعدات التي يملكها فوقع على الأرض ووقع منه السلاح، اقترب منه ليتأكد انه على قيد الحياة فقال له الرجل الآخر لن أنسى معروفك أنا مدين لك بروحي.

عاد السيد توفيق إلى منزله دون أن يعلم أن المستقبل سيخبأ له قصة أخرى لم يكن يتوقعها أو يتخيلها يوما، في الصباح وصل البريد إلى السيدة أم توفيق لم يكن هنالك اسم فكان الطرد بمثابة

لغز لها وضعته على الطاولة وجلست على الكرسي تنظر إليه ظنت أنه لتوفيق لكنها فتحته فكان مبلغ مالي ضخم ورسالة مكتوب عليها شكرا لك سيد توفيق أنا مدين لك بروحي، اضطربت دقات والدته خوفا وتساءلت من هذا الرجل وماذا حصل معه؟! وكالعادة كان توفيق يرجع إلى المنزل بعد منتصف الليل وأثناء خروجه من العمل استوقفته سيارة فارهة.

-اركب معي، والدي يريد رؤيتك

-أهلا بك، هل أنت بخير ؟!

-أجل بخير وبفضلك

ركب السيد توفيق معه وفي السيارة سأله عن قصته مع ذلك الرجل ولماذا أراد إطلاق النار عليه؟!

-أتعلم يا توفيق إنها مشكلة مالية في الشركة ووالدي يريد شرح الأمر لك بنفسه.

وصلا إلى منزلهم، كان المنزل أشبه بالخيال فيلا لم يسبق أن رأى بمثلها في حياته، فتح لهم الخادم الباب لمقابلة والد أكرم، المكتب واسع جدا خرج منه شخص كان يقول لا تقلق يا سيدي سيسير كل شيء على ما يرام.

-كيف حالك يا بني

-بخير الحمد لله

-أخبرني أكرم عنك، يبدو أنك شجاع جدا

-ماذا تعمل؟!

-معلم في المدرسة وفي المساء في ورشة لتصليح السيارات

-لقد ارسلت لك هدية إلى منزلك والآن أقدم لك عرض للعمل معنا

-لكنني لا أعلم ما هي طبيعة عملكم ولا أعرف من أنتم؟!

بدأ والد أكرم بأخباره عن عائلته وطبيعة عملهم المختصة بشراء العقارات والتصدير والاستيراد في كافة مجالات الشحن فقاطعه توفيق بأنه لا يفهم بهذه الأمور ولا يعرف ماذا عليه فعله فرد عليه أنت ستكون مسؤول عن ابني أكرم وسترافقه.

-ما قصتكم مع ذلك الرجل؟!

-انه يعمل عند شركة منافسة لنا لكنهم يقومون بتجارة المخدرات ويريدون النيل منا ومحاربتنا.

عرف توفيق بعض الأمور عنهم لكنه رفض العمل في مجال لا يعرفه وترك الأمر معلق بينهم وعاد إلى منزله فوجد والدته مستيقظة تنتظر عودته نظر إليها فوجدها قلقة وبدأت تسأله عن المبلغ المالي، أمسك توفيق يدها محاولا أن يطمئن قلبها فقال لها لا تخافي يا أمي سأخبرك بالقصة وبدأ يحكي لها عما جرى معه، لربما أشعرها بالطمأنينة لكن قلب الأمهات مليء بالقلق والخوف

تجاه الأبناء، فدائما تُبنى البيوت على مدى قوتهن وشموخهن وقدرتهن على التماسك والثبات في وجه الظروف والأوقات العصيبة.
بقي السيد توفيق يتحدث مع والدته فقامت لتحضير له طعام العشاء، رن جرس المنزل فقام توفيق ليفتح الباب فوجد شخصا لا يعرفه سأله أنت توفيق فأجابه نعم، أخرج سلاحه وقال له هذه لك حتى لا تتدخل في شيء لا يعنيك وأطلق الرصاصة عليه وهرب، بدأ الدم يملأ ملابس توفيق ويداه غير قادرتان على التثبت بالباب حاول أن ينادي على والدته لكنه سقط ممدد على الأرض.
-من الطارق جاءت والدته تسأله فركشت إليه مذعورة خائفة بعد أن أوقعت الصحون من يدها -بني استيقظ أرجوك، مضت أكثر من عشر دقائق ولم تأتِ سيارة الإسعاف، الموقف الذي جعل والدته تدخل في نوبة من الهلع والخوف.
بعد خروجه من غرفة العمليات واخبار الطبيب أن وضعه مستقر استطاعت والدته أن تتمالك نفسها وتستجمع طاقتها من جديد، شعور الفقدان هو ذلك الشعور الذي جعل والدته تقرر البقاء لوحدها لفترة طويلة من الوقت، كان كلما عاد توفيق إلى المنزل وجدها تجلس على الكرسي وتنظر ناحية النافذة دون أن تقول أي كلمة، استطاع أن يسدد كافة الالتزامات التي تراكمت عليهم فجلس عند قدميها ليخبرها فقال لها تكلمي يا أمي ارجوك ثم حضنها بقوة حتى امتلأت دموعها على قميصه، بعدها أصبح يسهر خارج المنزل ويذهب كثيرا مع علي إلى المقهى، كان يعلم بأن كل شيء يتغير بطريقة ما حتى وإن لم نلاحظ ذلك، حتى أن المرء لا يدرك مدى تغير الأشياء من حوله إلا بعد مرور وقت طويل فيظن أن أيامه تتشابه لكنها في الحقيقة تختلف عن بعضها البعض، فكم نجهل المستقبل وماذا سيحدث لنا وكيف سنتغير مع مرور الوقت بفعل الظروف والأشخاص والأحداث، قد يسعدنا أمر بسيط ويعكر صفوة حياتنا أمر بسيط فحتى والدة السيد توفيق لم تصاب بالصدمة حين توفي زوجها ولكن تراكم المصائب عليها جعلها تخاف من الفقدان مرة أخرى، رغم أن توفيق عاد إلى حياته بشكل أقل صدمة منها وأكمل حياته لكن الحزن يطرق بابه بين الحين والآخر.
الأيام تمر والعمر يمضي ولم يتزوج توفيق الذي كان من المفترض أن يكون منزله مليئ بالأطفال لكنه لم يكن، ذات ليلة وبعد تفكير طويل قرر أن يتزوج من زينب لم يكن يرغب بالحب لكن الحياة تفرض على المرء أن يكمل حياته بالطريقة المقدرة له أن يتزوج وينجب ويصبح أبا، فأخبر والدته بالأمر، السعادة التي رسمها على وجهها كانت كبيرة جعلتها تبكي من شدة الفرح لأن الفرحة لم تطرق بابها منذ سنوات، حضنته بقوة وعانقته وقررت أن تخطبها له في نفس اليوم لكنه قال لها تأخر الوقت لنتمشى قليلا في الخارج فوافقت، بدلت ملابسها ثم خرجوا من المنزل،

كان توفيق يمسك يد والدته وبدأت تسأله عن سبب قراره المفاجئ فرد عليها بأنه يريد أن يصبح أبا ويريد أن يكبروا أطفاله على يديها وأن يتذوقوا طعامها، رفعت يدها إلى السماء وقالت يا رب اجعل هذا الحلم واقعا ثم نظرت إلى ابنها وقالت له كم أتمنى أن تطرق السعادة بابك فزينب فتاة طيبة وستكون سعيدا معها فقال لها أتمنى ذلك ثم اردف قائلا يزداد الجو بردا لنعود إلى المنزل.

الأيام الجميلة تبقى في الذاكرة، نشعر بأن لها طعم مختلف يبهج قلوبنا ما إن مرت في ذاكرتنا، كالصباح الذي قررت والدة توفيق أن تجعل الصباح مميزا فأنارت المنزل وفتحت النوافذ واشعلت صوت فيروز ليكتمل الصباح وبدأت بترتيب كل شيء أما توفيق فذهب لشراء الورد والحلويات كما طلبت منه والدته، رن جرس المنزل فتركت البخور وذهبت لتفتح الباب كانت والدة علي وسمية عمة توفيق فاستقبلتهم بحفاوة كانت سعيدة لأن علاقتها بسمية بقيت مستمرة حتى بعد وفاة أخيها، تحضيرات الخطوبة هي أمر في غاية السعادة من خطبة العروس وتحضيرات الزفاف وشراء الملابس ودعوة المعازيم، ارسلت السيدة ام توفيق خبرا لخالة زينب من أجل قدومهم لخطبتها فاستقبلت الخبر بسعادة كبيرة.

تزوج توفيق من زينب وانجب منها اربع أطفال من الذكور وطفلة كانت زينب بالنسبة له عكاز الحياة فكان يأخذ رأيها في كافة الأمور التي تحصل معه وكانت هي سيدة مدبرة تعرف كيف تدير المنزل وتربي الأبناء، مضت سنوات طويلة وكل يوم معها يكون مليء بالسعادة والحياة، لم يقع بحبها إلا بعد مدة من الوقت وهي لم تكن امرأة عادية فهي استطاعت بعقلها وقلبها أن تجعله يقع في حبها.

-شعرت أن هنالك نقص ما في القصة لأنه أخبرني عن البدايات ولم أعرف مشاعره فيما بعد كيف أصبحت وهل تغيرت ولماذا كان يشعر بالغربة في وقت ما من حياته فكان علي أن أكمل حديثي معه لأعرف ما تبقى من القصة فقال لي اسمعي يا ابنتي :إن الحياة عبارة عن رحلة قد تكون ممتعة وجميلة وقد تكون كأوراق الشجر تسقط في فصل الخريف وتنمو في فصل الربيع، نعاني من فهم دروسها والعبر التي نمر بها ونحاول بشتى الطرق أن نكمل في طرقاتها رغم أنها من الممكن أن تعطينا الكثير من الأشياء إلا أنها تبخل علينا في كثير من الأوقات.

نتمنى أن يتوقف الزمان عند لحظات سعيدة نعيشها مع من نحب وأن تمر سريعا أمام مخاوفنا وحزننا، في كل مرة كانت تذهب زينب للولادة كنت أشعر بالفقدان ذلك الشعور الذي بقي يلازمني في طرقاتي وحين توفيت امي شعرت بأن جزءا مني فارقني، شعوري بالحنين يلازمني تجاه من أحببتهم وفارقوني، مر الوقت سريعا كبرت وكبر الأبناء أصبحت أحاول بكل الطرق أن أكون أبا صالحا لهم وأن أقدم لهم الرعاية والحب.

في كل وقت نجتمع فيه على المائدة كنت أردد الحمد لله في السراء والضراء وفي السر والعلن، حاولت أن نبقى هكذا لمدة طويلة لكن طموحات الأبناء كانت تغلب رغبتي وكانت تمسك بيدي زينب وتقول لي يوما ما سيذهبون في طرقاتهم فلا تقف أمام رغباتهم فكنت أحاول أن أساعدهم من بعيد وأراقب خطواتهم ولكن شعوري بالحزن كان يتجدد حين أودع أحدهم للسفر وحين أعانقهم عند محطات القطار وشعوري بالسعادة كان يزداد حين بدأت ريم دراستها الجامعية وأصبحت رفيقتي في الطرقات وحين جاء يوم زفافها فكانت أجمل عروس...

مر وقت أطول فأصبح لدي أحفاد شعرت بالغيرة بسبب قلة اهتمام زينب بي فقد كانت تعطيهم أكبر اهتماماتها وفي المساء نجلس معا تقطع لي الفواكه وتعطيني اياها كانت نعمة في حياتي وكنت أخاف فقدانها، كبرنا كثيرا غادر الأبناء المنزل وتوفيت زينب وبقيت لوحدي احتسي قهوتي وأغلق النوافذ ليلا وأطفأ الأنوار وأنام باكرا.

محطة القطار الثانية (٢)

سكة سفر (٢)

-هذه ساعتك، يبدو أنها تعطلت حين سقطت على الأرض؟!

-لا يا آنسة، إنها متوقفة منذ زمن طويل

-أتكتب كل هذه الرسائل؟!

-أكتب لها رسائل لن تصل

في المستشفيات تموت الكثير من القصص وتحيا الكثير منها، نودع أشخاص ونستقبل آخرين، نتمنى أن نبقى كما نحن بدون فقدان وبدون أن نحبس دموع أشواقنا وحرائق مشاعرنا وخيبة أملنا، فقط نريد أن نمضي بسلام على هذه الحياة...

في ذلك اليوم رن الهاتف كثيرا وكنت قد تركته في غرفة النوم فلم انتبه له إلا عندما صعدت إلى الغرفة، أمسكت الهاتف فكان الطبيب -استاذ أيمن والدتك بحالة حرجة جدا وترغب برؤيتك، هزمتني الصدمة وجعلتني لا أعرف كيف سأذهب بسرعة إليها، ارتديت قميصي وركبت سيارتي وبسرعة قصوى قدت السيارة دون أن ترعبني أزمة السير وأن هنالك احتمال حدوث حادث، وصلت المستشفى وبدأت أصعد الدرجات بكامل سرعتي وأنا ألهث وأحاول التقاط أنفاسي، حالة الخوف التي أصابتني كانت تؤكد لي بأن مكروه ما سيحصل لأمي، دخلت الغرفة وقبلت جبينها ويديها ورأسها كانت متعبة للغاية علامات التعب تظهر على وجهها الشاحب وشفاهها المزرقة اللون وكأنها وردة قد ذبلت قلت لها ما بكِ يا أمي، أرجوك تحملي، كوني بخير لأجلي فقالت لي :بُني اقترب مني قليلا، أمسكت يدي وقالت : تركت لك مبلغ من المال قاطعتها -لا تكملي يا أمي، لا اريد المال

-اسمعني أرجوك، المبلغ موجود في الصندوق داخل خزانتي، لا تنسى خالتك رؤى لقد اتصلت بي منذ يومين وقالت بأن وضعها المادي صعب، ارجوك لا تنسى مساعدتها.

-حاضر يا أمي، سأفعل كل ما تريديه ولكن أرجوكِ ارتاحي قليلا

-قد لا أعيش أكثر من هذا اليوم، ثم ذرفت دموعها.

لم أستطع تمالك نفسي ولا أن أمسح دموعها ولا دموعي، إن المرض في مرحلته الأخيرة، السرطان الخبيث الذي عاش معها عمرا كاملا وكان يقتلها من الداخل....يستعمر جسدها ويسكنها منذ سنوات، أخبرني الطبيب بأن علي الاستعداد لأي أمر قال لي والدتك لا تملك أي أمل في الحياة حتى إن مقاومتها للمرض ضعيفة جدا وكأنها مستسلمة تماما له تاركة خلفها الحياة بأكملها، مر أكثر من أسبوع وأنا أجلس مع أمي التي لم تعد قادرة على النطق بأي كلمة وبات الصمت يخيم عليها وكأنها تريد مني التعود على فقدانها، كلما نظرت إليها تساقطت مني ذكريات الطفولة والمراهقة والشباب وكل خطوة آلمتها بها في حياتي، تمنيت لو أنها تعيش أكثر من ذلك، أن أصلح علاقتي بها لكن الوقت قد تأخر كثيرا ولم يعد بوسعي أن أفعل شيء، توفيت والدتي وتركت غصة في قلبي، شعرت بأن عالما من الحزن بات يسكنني، لم أكن قادر على التجاوز مهما حاولت ذلك، تمنيت لو أنني أستطيع أن أمحو الحاجز الذي كان بيننا والذي بقي حتى بعد وفاتها، مضت أشهر أحاول استيعاب العيش بمفردي أرتب غرفتي وأغسل ملابسي وأفعل كل شيء لوحدي، تذكرت وصية أمي بأن أساعد خالتي رؤى، صديقتها منذ أيام المدرسة كانت تحبها كثيرا، أمسكت دفتر الأرقام رننت كثيرا عليها ولم ترد أظن بأنها بحاجة إلى المال، توجهت إلى غرفة أمي لم أكن قادرا على دخولها في البداية لكنني تمالكت نفسي واستجمعت كل ما في داخلي ودخلت، رائحة أمي تملأ الغرفة طيفها وصورتها وحياتها بأكملها في هذه الغرفة، فتحت الخزانة واخرجت الصندوق أردت توزيع المال صدقة عن روحها فتحت الصندوق فوجد به العديد من الرسائل الورقية وضعت الصندوق على السرير وبدأت أقرأ الرسائل المرسل ذاته في كل الرسائل الأستاذ عمران، بدأ الغضب يظهر على ملامحي تجمدت بمكاني وأنا أفتح رسالة تلو الأخرى يطمئن عليها ويخبرها أنه بخير ويكتب لها قصائد من الحب وينتهي بكلمة أحبك، أجمعت كل الرسائل وأردت تمزيقها لكنني لم أفعل ذلك، قرأت الرسالة الأخيرة كان يقول لها بأنه سعيد بتخرجي من الجامعة، هذا يدل بأنه يعرف تفاصيل حياتنا، من هو هذا الرجل؟! أيعقل أنه الحاجز الذي بيننا؟! أيعقل أن يكون هذا الرجل سبب شقائنا؟! ألهذا الحد تحبينه ولا تحبينني؟! عرفت للتو لماذا تكرهين والدي ولماذا لم يمر يوم هادئ في حياتنا، بعد الحزن الذي أصابني لفقدانك إنني الآن اكرهك، أكرهك بعد أن عرفت خيانتك، لم تعودي أمي ولن أعود ابنك، سجلت العنوان البريدي على هاتفي، السواد الذي ملأ مخيلتي لم يفارقني في تلك الليلة أردت أن أتنفس بشكل طبيعي ولم أستطع ذلك شيء ما كان يخنقني ويقيدني ويجعلني لا أفكر بشيء سوى الانتقام، تذكرت عندما كنت في العاشرة من عمري حين عودتي من المدرسة ذلك اليوم جعلني أكره والدي كثيرا كان يجلس على الاريكة وطلب منك إحضار الشاي لا أعلم ماذا جرى حتى سكبه على الأرض وضربك بقوة وعندما نظرت إليك قابلت في عيناك الكره

والحقد الذي تحملينه لوالدي، توقف عن ضربك حين نظر إليّ ثم هربت مسرعا إليكِ حضنتني بكلتا يديك ودخلنا الغرفة ثم أغلقت الباب في وجهه، كنت ارتجف خوفا عليكِ لكنك مسحت دموعك وقلت لي كيف يومك في المدرسة؟! هل ستكون الأول على دفعتك أم لا؟! وبابتسامة كنت تخفين آلامك وتحاولين تغيير الموضوع حتى لا تتأثر نفسيتي بشيء قلت لك حينها سأكون الأول كما تريدين وبدأت تلاطفين الأجواء وتحاولين بكل جهدك أن اضحك، ذلك اليوم وضع حاجزا بيني وبين والدي جعلني أكرهه ولكن اليوم اسأل نفسي لماذا ضربك؟! هل كان يعرف عن خيانتك أم لا؟!

مازلت أجهل كل شيء ولكن كل ما اعرفه ومتأكد منه هو رغبتي في الوصول إلى الحقيقة، إن كنت لا تحبين والدي فلماذا تزوجت منه ولماذا لم تنجبي غيري؟! لماذا تركتني وحيدا من غير إخوة حين أميل لا أجد من أستند عليه، تلك الأنانية التي رأيتها في عيناكِ جعلتني لا أفكر بشيء سوى الانتقام، سأفعل كل ما بوسعي لأذية الرجل الذي لم يفارق حياتك وحتى حياتنا كلما كنت افكر بالأمر يزداد الصداع في رأسي، أشعر وكأن طبول تقرع فيه، لم يمضي أشهر على العزاء بالكاد لا أصدق أزمة أخرى في حياتي، الأمر أنني أعود أدراجي إلى الخلف...إلى الماضي....

رن الهاتف كثيرا لكنني لم أرغب في الرد على أي مكالمة تصلني، كنت مشغولا بوضع ملابسي في الحقيبة وأخذ الأوراق والملفات المهمة، أردت مغادرة المنزل والعيش في مكان آخر، لا أعلم أين سأذهب لكنني سأذهب عزمت على الذهاب، وضعت الحقيبة في السيارة ثم عدت لآخذ هاتفي عن الطاولة وجدت رسائل كثيرة من شهد تكتب خوفها وقلقها عليّ لكنني رميت الهاتف جانبا وبدأت أقود السيارة أسير في الطرقات لا أعلم أين ستهدأ رحلتي؟! رن الهاتف اعتقدت بأنها شهد لكنه كان صديقي راشد والذي يعمل معي في الشركة.

-الووو، كيف حالك يا ايمن ؟

-بخير، الحمد لله

-اتصلت كثيرا ولم ترد على مكالماتي، هل حدث معك مكروه ؟

-لا تقلق، أنا بخير، لم انتبه على الهاتف

-تصاميم البناء رائعة جدا وقد تم اختيارها ليبدأ التنفيذ بها، لقد أثنى المدير على أعمالك

-الحمد لله، لكنني لا أريد العمل، قررت الاستقالة

-ماذا تقول؟! إنك تمزح

-إنني لا امزح

-أنت لست بخير، إنه مشروع العمر يا صديقي، هل تتخلى عنه؟!

-لا يهمني ذلك، لا أريد العمل

-حسنا، حسنا عندما أراك سنتحدث، أعدك بأن تغير رأيك، دعنا نلتقي اليوم

-إنني مشغول اليوم، أراك في الغد

-حسنا، كما تريد

أغلقت هاتفي وذهبت إلى مقر الرسائل البريدية، أردت الاستفسار عن عنوان الرسالة بالتحديد عن طريق رقمها البريدي، لا بد من معلومات مسجلة لديهم، دخلت المبنى فوجدت قسم الاستعلامات وهنالك قدمت استفساري وأسئلتي وتلقيت العنوان بعد أن بحث عنه الموظف في العناوين تشكرته وبابتسامة قال لي نحن بالخدمة دائما.

ركبت السيارة ذاهبا إلى العنوان المسجل في الورقة، الغضب يعمي عيوني ويجعلني لا أستطيع رؤية الطريق بالشكل الصحيح، أوقفت سيارتي فجأة كدت أن اصطدم بسيارة أخرى.

-هل أنت بخير يا أخي؟!

-أنا بخير

أوقفت سيارتي على الجانب الأيمن للطريق بينما سارت السيارة الأخرى مبتعدة عني، أغلقت نوافذ السيارة وبدون أن أشعر غفوت قليلا.

(ندى)

في طريق عودتي من الجامعة أحاول أن اجمع صور الأماكن والأشخاص في داخلي لأخبر أمي بها وبتفاصيل المدينة وضجيج سكانها وأجوائها، تختلف كثيرا عن قريتنا لربما أنني أحبها لمجرد أنني أدرس بها أو ربما أحبها لأنني أرى شموخ المباني فيها فهي مدينة عريقة وشامخة تمتزج بشكل عجيب بين الماضي والحاضر، إنها عمان في كل ركن من أركانها وزاوية يرتسم التاريخ وتحكي لنا قصصا عن حضارات وأمم كانت تعيش هنا، أحاول دوما أن أتجول في شوارعها، أن أسمع قصصها وأن أعيش العشق فيها ولو لمرة واحدة في الحياة، لا أعلم لماذا لا يحب والدي المدينة ولماذا لا يتحدث عنها رغم أنه عاش طفولته وشبابه فيها، توقف الباص عند المحطة

سينزل الركاب نظرت إلى الساعة فكان الوقت لا يزال مبكرا على وصولي بقي ما يقارب ساعة، تأملت الطرقات التي حفظتها كما أحفظ تفاصيلي الصغيرة، المحلات التجارية والمكتبات والأشجار التي كلما مررت عنها بدأت أتوقع عمرها يُخيل إليّ أن هنالك أشجار منذ مئات السنين أي أنها شهدت مرور أجيال من البشر، أحب الأرض وأتغنى بها لكنني أشعر بالحزن كلما بدأت الطرقات من حولي تمتلأ بالأشجار بدلا من البيوت والمحلات التجارية والاماكن العامة التي أحبها في المدينة فأشعر بقرب وصولي إلى القرية وإلى منزلنا، نزلت من الباص وحملت حقائبي وكتبي بينما ذهب الباص مبتعدا عني، وضعت حقيبتي على الأرض قليلا وحملت الكتب بيدي اليسرى وما إن رفعت الحقيبة بيدي اليمنى حتى جاء صوت من جانبي أعرفه.

-هلا ساعدتك يا ندى

-شكرا لك، سأحملها بنفسي

ابتسم وقال لي أنا عائد إلى المنزل سأساعدك

-مثلما تريد احمل الحقيبة إذن

أخذ الحقيبة وبدأنا نسير معا لم نتكلم بكلمة واحدة كان الخجل يملأ وجهي، حتى وإن كنت أعرفه لكنني أخجل منه في كل مرة أطلب منه شيء فيلبي طلبي.

-كيف كان فصلك الدراسي؟!

-بصعوبة مر، لكنني حققت نجاحا فيه

-سترتاحين من ضجيج المدينة والدراسة.

-نعم ربما سأرتاح

وصلنا المنزل فأعطاني الحقيبة وجدت والدي ووالدتي يجلسان أمام المنزل وعندما وصلت استقبلوني بحفاوة وشوق وأحضان، اخذت امي حقيبتي إلى الغرفة بينما طلب والدي من غسان أن يجلس معنا لكنه اعتذر من ذلك وطلب أن يغادر، جلست مع والدي فقال لي: اشتقت لك كثيرا فرددت عليه وانا أكثر.

-هل ستبقون في الخارج، ادخلوا إلى المنزل

-حسنا يا أمي، بقيت أتحدث مع والدي بينما أحضرت أمي الشاي.

-بدلي ملابسك يا ندى

-حسنا

دخلت غرفتي بعد عدة أشهر من دخولي لها، نظيفة ومرتبة يفوح منها رائحة العطر، ونسمات الهواء تتسلل من النافذة، بدلت ملابسي وعدت إلى غرفة المجلس فتح والدي ذراعيه وقال لي تعالي إلى هنا يا حبيبتي، ابتسمت وجلست على ركبتيه وبدأت أتحدث إليه.

-آه، يا صغيرتي كبرت ولم تكبري

-سأصبح معلمة بعد فصل واحد من الدراسة وما زلت تقول لي صغيرتي.

-أجل، فأنتِ صغيرتي

-لماذا لا نعيش في المدينة ونختصر المسافات التي بيننا فأكمل دراستي بالقرب منكم وتعمل أنت هناك.

-لا أريد ذلك فالمدينة لا تناسبني

-يعني في الماضي كانت تناسبك والآن لا تناسبك

شعرت بتوتره من طلبي له فقال لي هواء القرية نقي جدا ومناسب لصحتي أكثر.

جاءت عمتي ميرفت وعندما دخلت قلت لها: عمتي هلا أقنعتي والدي بالعيش في المدينة.

-لا يا ندى، لا أريد ذلك فوالدك لم يتركها إلا مرغما على ذلك.

نظر والدي إليها بغضب فتوقفت عن الكلام وسألتني أين والدتك فأشرت إلى المطبخ وقلت لها هناك.

جلست على الأريكة واحتسيت الشاي ثم ذهبت إلى غرفتي لأستريح قليلا، رميت نفسي على السرير وأخذت أنظر إلى الغرفة والهدوء الذي يعم المكان، جاء عصفور يتسلل من النافذة يقف عند المرآة ينظر إلى نفسه ويبحث عن فتات الخبز ويرحل ثم يعود أشعر بأنه يريد أن يستقبلني، عدت أفكر في السبب الذي جعل والدي يغادر المدينة ويعيش في هذه القرية، ولماذا يشعر بالتوتر في كل مرة أسأله نفس السؤال، وضعت الكتب على الرف والملابس في سلة الغسيل، سأرتاح قليلا من عناء الدراسة لمدة ثلاث أشهر ثم سأعود إليها، اشتريت عدة كتب

سأقرأها في هذه العطلة، تمنيت لو أن هنالك مكتبة في هذه القرية، عرفت أنني أقارن القرية في المدينة بأدق التفاصيل، طرقت امي الباب وقالت لي : الغذاء جاهز

-هل بقيت عمتي ميرفت هنا؟!

-لا، أحضرت دعوة زفاف ابنها قيس وغادرت

أحضرت الصحون المتبقية ووضعتها على الطاولة، من سيتزوج قيس يا أمي؟!

-ابنة عمه نادر

لم أتفاجأ من الأمر فهم يتزوجون من نفس العائلة ومن النادر أن يتزوج الشاب من فتاة تنتمي لعائلة أخرى .

-هل جميل ذلك يا أبي؟! أن يتزوجوا من نفس العائلة؟!

-إنها العادات والتقاليد لكنها قد تقتل مشاعر وتولد الكره والحقد في الكثير من الأحيان.

-أجل هذا ظلم ويأتي على حساب المشاعر.

لكن العادات والتقاليد تغلب كل شيء يا ابنتي هكذا جاء رد والدتي.

بدأنا الأكل وحمدت الله أنني لا أنتمي لتلك العائلات، لأنني أريد الزواج من الشاب الذي يرغب به قلبي وأشعر بأنه يناسبني، الطعام لذيذ وشهي فكل ما تقدمه لنا أمي جميل ورائع، تطيب جروحنا بأيديها وتمتلأ معدتنا بلذيذ طعامها، دائما أشعر بأن والدي محظوظ بها ورغم أنهم أنجباني في سن متأخر إلا أنني أحلم دوما وأتمنى لو كان لدي إخوة أتشارك معهم جميع مشاعري من فرح وحزن، أتسائل هل كانت أمي مريضة؟! أم هنالك سبب آخر ورغم ذلك فأنا أملك أجمل عائلة على وجه الأرض، أنهينا الطعام وأخذ والدي ينقل الصحون إلى المطبخ مع والدتي، سمعت والدي وهو يقول لأمي عن النقوط للعريس والهدايا التي سيشترونها لهم.

فكرت كثيرا في الفستان الذي سأرتديه في العرس، وفي المساء أخبرنا والدي عن المحل الذي استأجره ليفتح مكتبة في القرية لبيع الكتب واستعارتها، الخبر الذي جعلني أحلق من سعادتي.

قلت له حقا تريد فتح مكتبة هنا؟! فرد عليّ إنها هدية لكِ، ركضت إليه وقبلتُ جبينه وحضنته بقوة، لقد حلمت بذلك كثيرا.

-الآن سيصبح حلمك واقع وحقيقة.

-هل سنذهب لرؤية المحل إذن؟!

-ضحك والدي وقال لي انتظري سنذهب في الصباح.

شعرت بالسعادة فلم أستطع انتظار الصباح حتى.

(أيمن)

وصلت القرية التي يسكنها السيد عمران، سألت أحد الأطفال عن منزله فوصفه لي، كنت أشعر بالاختناق كلما اقتربت من المكان وجدت شارعا يخلو من المنازل وعلى طرفيه اشجار الزيتون والمنزل أمامي، ركنت السيارة وقررت السير وعندما وصلت المنزل وقفت خلف الشجرة أراقب من بعيد كان هنالك رجل وامرأة وفتاة يتحدثون مع بعضهم البعض، قامت الفتاة عن كرسيها وجلست على ركبتي الرجل أيعقل أن يكون السيد عمران؟! كلما مضى وقت وانا أراقبهم من بعيد اشتعل الغضب داخلي، أريده أن يدفع الثمن، سيدفعه .

اقتربت منهم فنظروا إليّ باستغراب فقلت لهم أريد منزل للإيجار في هذه المنطقة وأريد المساعدة.

نظرت الفتاة إليّ باستغراب ثم نظرت إلى والدها الذي رد عليّ قائلا حسنا يا بني، سأدلك على بيوت للإيجار في هذه المنطقة وبدأ يخبرني عن البيوت وأسعارها فقلت له لا يهمني السعر، يهمني المنزل فقط.

نظرت إلى ساعتي لأعرف إن كان بإمكاني رؤية البيوت جميعها التي أخبرني عنها لكن الساعة كانت متوقفة يبدو أنها تعطلت هكذا قلت بصوت مرتفع فقال لي السيد عمران لا عليك يا بني سأصلحها لك.

-لا شكرا لك، لا أريد أن اتعبك معي

-إنها مهنتي، لا تقلق

إنه يعمل مصلح للساعات أيعقل أن والدتي أحبت رجلا مثله وهو أيضا كبير في السن اظن بأنه يكبر والدتي بأكثر من ثلاثة عشر عاما، إنني لا أفهم شيء ولا أفكر بأي شيء.

طلب السيد عمران من ابنته ندى أن تحضر حقيبة المعدات من الداخل فنظرت إليه بطاعة وقالت له سأحضرها على الفور، عرفت حينها اسم الفتاة إنها ندى.

أحضرت الحقيبة وبدأ يصلح لي ساعتي ثم سألتني ندى عن سبب رغبتي في العيش هنا فقلت لها بأنني أحب الأماكن الهادئة أكثر من ضجيج المدينة، قام والدها عن كرسيه وأعطاني الساعة فأخذتها منه وارتديتها ثم قال لي : سآتي معك لنرى البيوت ثم نظر إلى ندى وقال لها في الغد سنذهب لرؤية المحل حينها شعرت بالاستياء وقالت له لكنني انتظرت حتى الصباح وسأنتظر للغد، لا يعقل ذلك نظر إليها فتوقفت عن الكلام ثم قالت بعدها حسنا كما تريد ثم نظرت

إليّ بغضب ودخلت إلى المنزل شعرت وكأنني سرقت منها شيئا جميلا، غضب عيناها كان جميلا للغاية، إنها فتاة جميلة بيضاء ذات وجه مستدير وشفاه صغيرة حمراء وعيون بنية واسعة تضع حجابا يظهر مقدمة شعرها البندقي اللون ما إن تصله أشعة الشمس حتى يصبح لامعا، ذهبت مع السيد عمران إلى المنازل التي يمكنني استأجرها فدخلت المنزل الأول كان بعيدا عن منزلهم لذلك حاولت جاهدا أن أجد أي عيب فيه حتى لا أختاره ومهما كان السيد عمران يقنعني به كنت أرفض ذلك، وحين خرجنا من المنزل قال لي صاحبه إن أردت الاستئجار سأقلل لك الأجرة لكنني ودعته قائلا لا، لا أريد ذلك وإن غيرت رأيي سأتصل بك عن طريق السيد عمران ثم ذهبنا، سألته عن ندى هل غضبت بسببي؟! فقال لي لا يا بني اتفقت معها على فتح مكتبة لكنني أجلت الأمر لأذهب معك، تغير موضوع حديثنا عن البيوت لنتكلم عن المكتبة.

-هل تريد فتح مكتبة في هذه القرية؟!

-نعم، أرغب بتقديم شيء لأهالي القرية وللأبناء، إنهم يجدون صعوبة في شراء وقراءة الكتب وبناءا على رغبة ابنتي ندى أردت فتح المكتبة.

-هل تحب قراءة الكتب؟!

-أجل لقد كنت أستاذ في كلية الآداب في الجامعة

-حقا !! يعني أنك شخص متعلم

-أجل، لماذا تفاجأت؟!

-لا، فقط ظننت أنك مصلح للأدوات

وصلنا المنزل كانت والدة ندى تحضر لنا الشاي فعزم عليّ الدخول لكنني اعتذرت منه فلم يقبل بذلك، قلت له بأنني سأتأخر عن استأجار المنزل فقال لي لنستريح قليلا ثم نعود معا، لم أرى ندى لكنني سمعت صوتها وهي تتحدث مع والدتها.

ذهبنا إلى المنزل الذي اخترته كان الأقرب إلى منزلهم وطابقه العلوي يطل على منزلهم وبهذه الطريقة استطيع مراقبتهم ومعرفة كل شيء عنهم، استأجرت المنزل ووقعت عقد الإيجار ودفعت المبلغ كاملا ووضعت حقيبتي في المنزل وبعدها ودعني السيد عمران بحجة أن الشمس قد غابت وعليه العودة إلى المنزل، اقترحت عليه أن أوصله بسيارتي لكنه رفض وأنا لم أصر عليه، دخلت الغرفة وخرجت مسرعات منها شغلت سيارتي وعزمت عليه الركوب، بدأت خطتي في الانتقام منهم، أريد أن أنزع منه كل شيء حتى ابنته وسأفعل ذلك.

وصلت منزلهم كانت النوافذ مضيئة، نزل من السيارة بينما عدت إلى منزلي كنت أنظر إليه من خلال مرآة السيارة فتحت له ندى ودخلا معا، وصلت منزلي، المنزل فارغ ولا يوجد فيه سوى سرير وغطاء وخزانة للملابس كما أن المنزل بارد جدا، لم أكن اتوقع أن أعيش في منزل كهذا فارغ وبارد وقاسي يشبهني إلى حد ما، رن الهاتف فوجدت شهد تتصل بي فتحت الخط وبدأت التحدث معها أصبحت الساعة الثانية بعد منتصف الليل وهي تتحدث معي وبين كل لحظة ولحظة أخبرها بأن المنزل بارد فتضحك عليّ وتقول بأنني أصبت بمرض ما، بمرض لا يُعرف ما هو؟! غادرت غرفتي وقلت لها انتظري قليلا سأصعد إلى السطح فردت ضاحكة: حقا إنك مريض تشعر بالبرد وتصعد إلى السطح، نظرت إلى منزل السيد عمران فكانت جميع الغرف مظلمة ما عدا غرفة واحدة أيعقل أن تكون غرفة ندى، شعرت بأنني بدأت حقا أصاب بمرض لقد بدأت أراقب تفاصيلهم الصغيرة، عدت إلى غرفتي وأكملت حديثي مع شهد وبعدها ذهبت في سبات عميق.

وفي الصباح استيقظت على صوت زقزقة العصافير وصوت حراثة الأرض التي كانت تأتي من المنزل القريب من منزلي، الصباح لم يكن يشبه أي صباح عشته من قبل، أشعة الشمس ونسمات الهواء والأشجار والعصافير جميعها تعلن بداية يوم جديد وبطريقة جميلة، خرجت من المنزل وجلست عند شجرة رمان أتأمل المكان من حولي، يبدو أن المكان خالٍ من السكان فهنالك مسافات بين كل منزل ومنزل، أريد تحضير الفطور ولا أعرف أين سأذهب، ركبت سيارتي وبدأت أقودها وجدت شابا فسألته أين المخبز فقال لي بأن عليّ الوصول إلى الطريق الرئيسي ومن ثم التوجه للمدينة وعلى الطريق اتصلت براشد وطلبت منه أن يتصل بشركة الأثاث ويشتري لي كل مستلزمات المنزل ويسدد عن طريق أجرة المشروع، سألني عن الموقع فأخبرته فأغلق الخط في وجهي عدت واتصلت به فلم يرد، وصلت المخبز واشتريت الخبز والكعك وثم ذهبت إلى المول واشتريت المعلبات والطعام وفي طريق عودتي إلى منزل اتصل بي راشد وقال لي ابعث موقعك برسالة سأفعل ما تريد، تركت الهاتف جانبا وبدأت أتابع الطريق والأشجار على طرفيه دخلت القرية فشعرت بأن شى ما يخنقني رغم نسمات الهواء التي تهب من كافة الجوانب، هنالك وجع ما يخيم فوق صدري، لماذا تعرفت على هذا المكان في وقت متأخر؟! لماذا كانت حياتي تشبه ضجيج المدينة ولماذا لم تنعم حياتي بالهدوء، أي الأقدار جاءت بي إلى هنا، قلبي قد أصبح مؤصدا مليئ بالانكسارات والمخاوف والفقدان أعيش مع نفسي ولنفسي لا يهمني ما قد يأتي في الغد، وصلت المنزل وبدأت بنقل المشتريات إلى الداخل، مر من جانبي شاب فسألني إذا كنت المستأجر الجديد فقلت له أجل طلب أن يساعدني في نقل المشتريات إلى الداخل فقلت له لا بأس، فقال لي أنا غسان اسكن في المنزل المجاور لك فعرفته بنفسي وقلت له أنا أيمن،

سررت بمعرفته يبدو أنه شخص خدوم، وضعت الخبز على الطاولة وحضرت الشاي ثم بدأت الأكل، رن جرس المنزل تفاجأت حقا؟! إنه راشد.

-أهلا بك يا صديقي، صافحته بحفاوة فلم أكن اتوقع قدومه

-الفطور جاهز

-يبدو أنك قد عزمت على قرارك بترك العمل والعيش هنا

-أجل هكذا يبدو الأمر

-ما قصتك يا رجل؟! اعرفك جيدا، لن تستطيع العيش هنا

-لا تقلق، سأتدبر الأمر أريد أخذ اجازة من كل شيء مررت به

-اتصلت بشركة الأثاث وقمت بشراء كل ما تحتاج إليه، لا تقلق أنا بجانبك

بدأ يحكي لي عن المشروع الذي ستقوم بتنفيذه الشركة كنت سعيدا وحزينا بنفس الوقت لقد وضعت مجهودا كبيرا وعلقت الكثير من الأحلام على هذا المشروع، لكن لا بأس سأجعل السيد عمران وعائلته يدفعون ثمن كل شيء خسرته بسببهم.

غادرني راشد وقال بأنه سيزورني بين الحين والآخر حتى لو كنت في مزاج سئ قلت له لن أتجاهلك وقفت عند الباب حتى ركب سيارته وغادر ثم دخلت إلى الداخل فصعدت إلى الطابق العلوي بدأت أنظر إلى منزلهم كانت والدة ندى تسقي الأشجار بينما تجلس ندى على الكرسي، أفكر بوالدتها التي يبدو عليها التعب رغم أنها لم تنجب سوى ندى ولا أعلم سبب حزنها بين الحين والآخر فحين جاء السيد عمران تركته ودخلت إلى المنزل، أخذت دوشا خفيفا، بدلت ملابسي وذهبت إلى منزلهم طرقت الباب الأمامي فلم يفتح لي أحد، رجعت خطوتين إلى الأمام فقد سمعت صوتا يأتي من خلف المنزل فكانت ندى رددت التحية عليها لكنها تجاهلتني على ما يبدو ودخلت المنزل، رفعت حاجبي باستغراب وهممت بنفسي هذا جميل جدا خرج والدها لاستقبالي فطلبت منه أن نجلس في الخارج فقبل ذلك قلت له بأنني أستطيع تصميم المكتبة فأنا مهندس وأعرف في هذه الأمور تردد قليلا ثم قبل بذلك، نادى على ندى وقال لها جهزي نفسك سنذهب لرؤية المحل، جاءت والدتها تحمل الفطائر فوجدتني عندهم رحبت بي وقالت تفضلوا الفطور جاهز فقلت لهم اعذروني لقد فطرت للتو لكنها أصرت بتذوق فطائر الجبن والزعتر، رائحة الفطائر ذكرتني بأمي عندما كانت تعدها لي، لقد كانت تجعلني أحلق من السعادة، اليوم عادت بي ذاكرتي إلى تلك الأيام التي رحلت بعيدا ولن تعود أبدأ، في كل مرة

كانت تشعر أمي بأنني حزين كانت تعد لي الفطائر وتأخذني إلى الحديقة مع الخالة رؤى وأبنائها، نجلس في الحديقة نلعب معا بينما تتحدث أمي معها، نادى عليّ السيد عمران ولم اسمعه سرحت قليلا فقال لي بني ماذا بك؟! فقلت له أنا بخير، لنذهب الآن، ركبنا سيارتي وجلس في المقدمة بينما جلست ندى في المقعد الخلفي.

-بني لقد تعدينا المحل.

-أعرف ذلك، لكنني سآخذكم إلى مكتبة هنا قريبة لتروا تصميمها

قالت ندى إننا سنذهب للمحل وليس للمكتبة، نظرت إليها من خلال مرآة السيارة راقبة غضبها وهي مستاءة مني ومن وجودي تجاهلتها وعندما وصلنا المكتبة قلت للسيد عمران تفضل لنرى المكتبة من الداخل، نزلنا السيارة بينما هي أغلقت الباب بقوة فقلت لها على مهلك سينكسر الباب فنظرت إليّ بخجل وقالت أسفة، ضحكت من أعماق قلبي لقد أحرجتها وحين دخلنا المكتبة بدأنا نتحدث مع صاحبها عن تصميمها الداخلي وعن الأماكن المناسبة لشراء وشحن الكتب بينما اختفت ندى عن الأنظار فذهبت أبحث عنها وجدتها غارقه بين الكتب رفعت حاجبيّ باستغراب فنظرت إليّ وقالت ماذا تريد؟! فقلت لها لا شيء، هل أنت هكذا غاضبة في كل الأوقات وقفت على قدميها وتركت الكتاب على الرف السفلي وقالت لي: لا علاقة لك بذلك، أمسكت يدها فأبعدتني وقالت لي إياك أن تمسك يدي، عدنا إلى السيد عمران وهو لا يزال يتحدث مع صاحب المكتبة نظر إلينا وقال لنذهب الآن لرؤية المحل، ركبنا السيارة وقلت له إذا أردت ذلك سنقوم بتصميم المكتبة مثل هذا التصميم وسأقوم ببعض الإضافات فقال لي موافقا على رأيي فقلت له سأبدأ بتنفيذ التصميم بعد رؤية المحل ومعاينته.

بعد مرور أسبوع كامل ونحن نقوم بتجهيز المكتبة جلست على الكرسي أتأمل ندى وهي غارقة في العمل والاجتهاد تنقل المعدات من مكان إلى آخر ويساعدنا غسان في ذلك، ناديت عليها وقلت لها ستعودين إلى المنزل لأنه سيأتي فريق كامل مختص للعمل هنا فردت علي أنت الذي سيعود إلى منزله، لأنني سأبقى هنا، في بداية تعارفنا كانت فتاة عنيدة يستحيل عليّ التكلم معها بكلمة أو أن أفرض عليها أي أمر مهما كان، ذهبت مبتعدة عني فتعثرت بالسلم الملقى على الأرض فقمت بسرعة لأمسك يدها، تأملت عيناها وشعرها المنسدل من الأمام سألتها هل تستطيعين الوقوف فقالت لا، لا أستطيع ذلك فقلت لها اتكئي علي، جعلتها تتكأ علي ثم أجلستها على الكرسي فبدأت تبكي من الوجع، جاء والدها مسرعا تاركا ما بيده من أدوات :ابنتي ماذا حصل؟!

-لقد تعثرت بالسلم وقدمي تؤلمني، أمسك قدمها وحاول تحريكها بينما كانت تبكي وجعا، - هل نأخذها إلى المستشفى فرد علي والدها لا، سوف تتحسن، رأيت الخوف والقلق في عيونه، أما عن نفسي فكنت أحاول التقرب منهم بأي طريقة، ذهب والدها لحضرتك علبة الاسعافات الأولية من السيارة بينما بقيت إلى جانبها قلت لها حاولي أن تحركي قدمك حتى لو ببطء نظرت إليّ وقالت لا أستطيع ذلك، لم ترفض طلبي هذه المرة فقلت لها سأساعدك، لا تقلقي فقالت لي لا تقلق سيأتي والدي بعد قليل فقلت لها لماذا أنتِ عنيدة إلى هذا الحد؟! فابتسمت وقالت لست عنيدة لكنني أشعر بأنك تفرض نفسك علينا، ضحكتُ من أعماق قلبي فقالت لي لماذا تضحك؟! فقلت لها أضحك على عنادك فضحكت لأول مرة أرى ابتسامتها، لا يمكن وصف البراءة والجمال حين يجتمعان معا في وجه أنثى إنها حقا ساحرة وجذابة.

-أتحبين الكتب لذلك قرر والدك فتح هذه المكتبة لأجلك؟!

-أحبها

عادت تتألم من وجع قدمها، جاء والدها ليضع لها المرهم ويلف عليها الشاش الطبي فغادرت المكان وذهبت إلى السيارة اشتريت الماء والعصير من البقالة ثم عدت إليهم، لقد أنهينا الكثير من الأعمال وسنترك ما تبقى للمختصين اتكأت على والدها بينما شغلت السيارة للعودة إلى المنزل، أصر عليّ السيد عمران أن أدخل معهم إلى المنزل لكنني استأذنت وعدت إلى منزلي، وفي الصباح ذهبت للاطمئنان على ندى فتحت لي والدتها وقالت إن ندى ذهبت تتمشى في القرية سألتها أي اتجاه فأخبرتني، ذهبت للبحث عنها وجدتها تجلس تحت شجرة زيتون سلمت عليها فعدلت جلستها وردت التحية علي قلت لها ماذا تفعلين هنا منذ الصباح؟! فقالت إنني أنجولا قليلا وقررت الارتياح هنا.

-هل اجلس بجانبك؟!

-تفضل

جلست بجانبها وبدأنا نكتب على الرمل ونتحدث مع بعضنا، سألتني لماذا قررت العيش في هذه القرية فأخبرتها عما حدث معي من وفاة والدي ثم والدتي وأنني أرغب بالاسترخاء هنا، فقالت لي هل لديك اخوة واخوات فقلت لها لا، لا يوجد شعرت بأنها شعرت بالسعادة والاطمئنان على ما يبدو بأن هنالك أحد في هذا العالم يشبهها بدون أخوة وأخوات، سألتها هل تحبين القرية فردت مترددة نعم ولكن أحب المدينة أكثر، ضجيج المدينة يعجبني، رن هاتفي كثيرا كانت شهد تتصل بي وضعت الهاتف وضعية صامت فقالت لي لماذا لا ترد على هاتفك

فقلت لها الأمر غير مهم، لا تقلقي وأكملنا الحديث بعدها كانت ابتسامتها لا تفارق وجهها وهي تتحدث عن المدينة التي تركتها مرغما عني، قلت لها لنعد إلى المنزل فوافقت على ذلك أخذنا نمشي بين أشجار الزيتون والتين وأزهار الياسمين قطفت زهرة وأعطيتها إياها تشابهت هي وزهرة الياسمين بالبراءة والجمال ورائحة العطر، سألتني إن كان لدي حبيبة فقلت لها أجل لدي نظرت إلى عيوني وكأنها تريد التأكد من جوابي فابتسمت لها وسألتها لماذا تسألين؟! فردت علي وهي تتحاشى النظر إلى عيوني مجرد سؤال لا أكثر فهززت رأسي وقلت لها هكذا إذن وأنتِ ماذا عنك؟! فقالت ما زلت أدرس في الجامعة ولم أحب أحد ولا أفكر في الحب اطلاقا جعلتني أضحك يعني أنك صغيرة فقالت أجل، عادت شهد تتصل بي رددت عليها مبتعدا عن ندى كانت تريد الاطمئنان علي فقالت إنها تريد رؤيتي فقالت بذلك، سنلتقي في المقهى الذي اعتدنا أن نلتقي به، بعدها عدت أسير مع ندى فسألتني هل تريد منك شيء؟! فقلت لها لا انسي الأمر، حاولت أن تجعلني أتحدث عن شهد لكنني قطعت أسئلتها ولم أكن أجيب بأي شيء فقلت لها مازحا أنتِ صغيرة عن الحب!! كان جوابي مستفز فتثور وتغضب.

بدأت تحضيرات عرس قيس ابن عمة ندى فقبلت الدعوة من والدها، لأول مرة أحضر عرس في القرية، رأيت مدى اختلاف السيد عمران وعائلته عن أهالي القرية الذين يقدسون التقاليد والعادات في الأعراس، ليس قصدي أن السيد عمران لا يهتم بالتقاليد لكنه يعطي ندى حرية الاختيار في كل شيء ويقدس رغباتها، وحسب ما عرفته أن قيس سيتزوج من ابنة عمه حتى وإن لم يكن يريدان بعضهم البعض، غمزت ندى وقلن لها ستكونين أجمل فتاة في العرس فضحكت وقالت أجل فأنا جميلة هممت قائلا سأرى ذلك واحكم بنفسي، قدمت كافة التصاميم للسيد عمران وقررنا أن ننقله للعاملين لبدء التنفيذ ثم رافقته لشراء المعدات والمستلزمات وفي الطريق شعرت بأنه يحاول التعرف علي أكثر عن عملي وسكني وحياتي لكنني سألته سؤالا جعله ينظر إلي نظرة شك بأنني أعرف ماضيه لماذا تركت العمل كأستاذ في الجامعة وجئت للعيش هنا فبدأ العرق يتصبب وجهه والغضب في عيناه حاولت أن أتمالك نفسي وأبدو هادئا فقال لي لقد وجدت راحتي هنا، فسألته سؤالا آخر لكنك تزوجت في سن متأخر وأنجبت فتاة واحدة وهي ندى فقال لي أجل كنت سأتزوج في بداية الثلاثين من عمري لكنني لم أنجح في ذلك وسافرت إلى الكويت لمدة طويلة وعدت إلى هنا فتزوجت سهى وأنجبت ندى، بعد عودتنا عدت إلى منزلي وعاد كلامه يدور في عقلي أيعقل أنه أراد الزواج من أمي لكنه لماذا لم يتزوجها؟! ماذا حصل؟!

في المساء كانت ندى ترتدي فستانا خمري اللون وتضع شالا ورديا ترميه على شعرها المنسدل من الجوانب وتضع مساحيق التجميل التي تزيدها أنوثة وجمال وقفت إلى جانبها وقلت لها تبدين جميلة جدا فردت علي وأنت أيضا، بدلتك جميلة رنت شهد علي فتركت ندى وذهبت أتحدث معها في سيارتي ولوحت لهم أن يذهبوا إلى العرس وأنا سألحق بهم، كانت شهد تبكي كثيرا لقد حصل شجار بينها وبين عائلتها لذلك كان علي أن أخفف حزنها وأقف إلى جانبها كما كانت تفعل معي، ذهبت إلى المكان الذي اتفقنا عليه، سلمت عليها ومسحت على كتفها لتهدأ فقالت لي بأن والدها أنهى إجراءات الطلاق من والدتها ويريد منها العيش معه ومع زوجته الجديدة وهي رفضت ذلك فهي لا تريد أن تترك والدتها وهو لا يقبل بذلك لطالما أخبرتني منذ سنوات عن توتر العلاقات في عائلتها وكنت أحاول دوما أن أساعدها في التخطي والتجاوز رغم أن حياتي لم تكن أقل سوءا من حياتها، بقيت أتحدث معها ثم سألتني فجأة عن سبب ارتدائي للبدلة الرسمة فتذكرت العرس فطلبت مني أن أغادر لكنني رفضت ذلك قررت البقاء معها ومشاركتها حزنها، بعدها سرنا في الشوارع معا حتى شعرت بالارتياح وهدأت طرقاتنا فجلسنا على مقعد خشبي ضممتها إلى صدري فقالت لي : لماذا لا نتزوج؟! ابتسمت لها وأجبتها بتعجب ألم أخبرك بأننا أصدقاء؟! ثم قلت لها لماذا تكرري هذا الأمر هل تريدين أن أهرب واختفي من حياتك فضحكت وقالت لا، لا أريد ذلك.

تأخر الوقت فأوصلتها إلى المنزل وانتظرت دخولها إليه ثم عدت إلى منزلي في المدينة، المنزل الذي عاهدت نفسي أن لا أبقى فيه وبدون أن أنظر حولي حتى صعدت إلى غرفتي، أشعلت الضوء فيها ثم أطفأته ورميت نفسي على السرير ونمت بسرعة دون أن أفكر بشيء.

(ندى)

في عرس ابن عمتي كنت حائرة بين المعازيم الجميع يسلم عليّ وأنا شاردة الذهن أسأل عن أيمن هل جاء إلى الحفلة أم لم يأتي بعد ولماذا تركنا نذهب لوحدنا، انتهت الحفلة وعدنا إلى المنزل كان والدي يخبر أمي عن بعض التفاصيل المتعلقة بالعرس بينما جلست على الأريكة استمع إليهم بعدها قال والدي لأمي بأنه لم يرى أيمن في العرس فقد يبدو أن خجل من الذهاب لوحده فوافقته الرأي أمي، تأكدت بأنه لم يأتي للعرس، استأذنت من والدي وعدت إلى غرفتي، حزنت كثيرا لأنه لم يكن موجود لطالما تخيلت وجوده معي، لطالما شعرت بأنه سيكون يوما جميلا بوجوده لكنني لا أعلم لماذا ذهب فجأة؟!

عندما رأيته يرتدي البدلة بدا لي وسيما للغاية وكأنه يشبه فارس أحلام الفتيات، لا أعلم لماذا أفكر به وهو يرتبط بفتاة أخرى ولم على القلق عليه بينما يذهب دون أن يبرر غيابه، لم أستطع النوم وأنا أفكر به قررت الاتصال به لكنني لم أجرؤ على ذلك فقررت الانتظار للصباح.

مضى أكثر من يومين على غيابه وأنا قلقة لا أعرف أين هو؟! جلست على الكرسي مقابل والدي والذي كان يصلح المصابيح اتأمله وهو يعمل سألني إن كنت أشعر بالملل فرددت عليه بالنفي لا، لا أشعر بذلك ابتسم لي وقال سنفتتح المكتبة الأسبوع المقبل وسنبدأ العمل فيها تحمست لكلامه فقلت له بأنني انتظر ذلك بفارغ الصبر، أكمل عمله وقال لي لقد أعطيت العمال التصميم وبدأو التنفيذ قاطعته هل هو تصميم أيمن وهل سيشرف عليه بدا لي وكأنه لا يريد التحدث عنه أمامي فلم يرد على أسئلتي، قررت الذهاب للتسوق فاستأذنت من والدتي وذهبت تحولت في السوق واشتريت لأمي كل ما طلبته مني، الشوارع عريقة قديمة وحديثة في آن واحد وصلت عند بائع الورد فاشتريت الورد الجوري جاء شخص مغترب يسأل صاحب المحل عن مكان قد نسيه وقال بأنه لا يتذكر تفاصيل المنطقة، نظرت إليه فوجدته ينظر إليّ بإعجاب وعندما غادر قال لي أنت أجمل من فتيات فرنسا، عدت أنظر إلى الورد وقررت شراءه لأمي، إنني لا أرغب أن أكون جميلة فالجميلات بلا حظ فقد قاربت على الانتهاء من الجامعة ولم أحب بفرصة حب واحدة، حتى أيمن لديه حبيبة ويبدو أنني دخلت العالم في وقت متأخر فوجدت كل الأماكن ممتلئة ولا يوجد لي مكان واحد، لكنني أتمنى أن يطرق الحب بابي يوما ما، فقد سمعت كثيرا أن الحب يأتي في وقت ما في حياتنا فيبعثر كل شيء إلى أن تستقيم الأشياء على نطاق معين، تحولت قليلا في السوق وصلت عند محل قديم للحرف اليدوية صاحب المحل رجل عجوز ما زال يتمسك بالقطع الأثرية غير مبالٍ بحداثة العصر، في كل مرة أنظر فيها إلى رجل عجوز أحاول أن أدقق في تفاصيل وجهه محاولةً البحث عن الزمن المتراكم في تجاعيده والحياة التي عاشها، أسأل نفسي عن كل خط من خطوط وجهه والقصة التي تخفيها، وهل يمكن أن يعيش الإنسان عمرا طويلا ويكبر دون أن يعيش قصة حب واحدة أو حزن واحد لطالما شعرت أن الأحزان كثيرة ولا بد للجميع أن يمروا بها لكن الحب شيء مختلف قد لا يعيشه الجميع، اشتريت قطعة خشبية محفور عليها اسمي وأردت الاحتفاظ بها حتى تملأ التجاعيد وجهي، أريد أن تذكرني هذه القطعة بعمري العشريني، عدت إلى المنزل التفت يمينا ويسارا انظر إلى منزل أيمن الذي يبدو خاليا ولا يوجد فيه أحد، وصلت المنزل وضعت الأشتال على الطاولة وأخذت الوردة لأضعها في غرفتي رددت التحية على أمي ودخلت الغرفة، وضعت الوردة على النافذة حتى تأخذ نصيبها من أشعة الشمس، جاءت أمي تسألني عن والدي فاستغربت سؤالها فلم أراه اليوم ثم طلبت أن أساعدها في المطبخ فوافقت على ذلك، بدأنا

نعد الطعام ثم قالت لي أكمليه يا ندى سأذهب عند صديقتي ميرفت فقلت لها سأكمله كما تريدين، وضعت الصواني بالفرن وبدأت بتحضير السلطة ووضع الصحون على الطاولة، أشعلت الراديو فكانت أغنية فيروز ضلوا تذكرونا لماذا يحب العشاق أن تُخلد قصصهم في الأماكن والطرقات التي شهدت قصة حبهم، مضى ما يقارب ساعة نضج الطعام وأنهيت تحضير كل شيء وأمي لم تأتِ بعد، سمعت صوت والدي يأتي من الخارج فتحته فوجدته يتحدث على الهاتف كان صوته عالٍ جدا يؤكد على العمال ما عليهم القيام به كما أنه مستاء من اختفاء أيمن وعدم رده على اتصالاته، كأن يزداد قلقي عليه يوما بعد يوم وفي المساء قررت الاتصال به رغم معرفتي بأن هاتفه مغلق لكنني قررت المحاولة أمسكت هاتفي وبدأت الاتصال به وجدت هاتفه يرن أثار دهشتي كيف ذلك؟! فوالدي كان يقول أن هاتفه مغلق منذ أكثر من يومين رد علي كان صوته بعيد وغير واضح سألته هل كنت نائم؟! فرد عليّ لا، لكنني متعب قليلا سكت وشعرت بالقلق عليه فقلت له سلامتك كان كل واحد منا يحمل كلاما كثيرا لكننا لم نستطع قوله، قلت له إن والدي حاول كثيرا الاتصال بك لكن هاتفك مغلق فرد قائلا سأتصل به في الصباح.

-ألن تأتي إلى القرية؟!

-قد آتي في الغد

-صوتك يدل على أنك لست بخير

-قلت لك إنني متعب

لا أعرف لماذا كنت مندفعة تجاهه بطريقة غير صحيحة فقلت له -اشتقت لك كثيرا لم يعطي لكلمتي أي أهمية وقال لي غدا سأراكِ، أنهى مكالمته بتصبحين على خير ورددت قائلا وأنت بخير، لا أعرف لماذا لا ينظر إلى عيوني ولا يحاول التقرب مني، لماذا كلماتي تزعجه أو أي اهتمام مني يجعله بحالة من الصمت والغموض.

في كل مرة كنت أحاول أن اخطو خطوة تجاهه أو أن يرتب القدر فرصة واحدة لنلتقي كان يتركني ويبتعد لأسباب لا أعلمها ولا يخبرني بها، هل بسبب حبيبته شهد أم أن هنالك سبب آخر، حين عاد إلى القرية جاء إلى منزلنا وذهب مع والدي ليكمل ما تبقى من عمل في المكتبة، حاولت الوصول إليه ولم استطع محادثته كان بعده عني يجعلني بحالة من الصمت....الحزن، ذهبت إلى منزله فدُهش من وجودي قال لي سنمشي في الخارج، كانت صرامة كلامه وصلابته تجعلني أشعر بالغربة عنه بعد أن بدأت أحبه وبدأ يكبر في داخلي، فقلت له مثلما تريد دخل إلى المنزل وجعلني انتظر أكثر من عشر دقائق.....أيام.....وسنوات مضت وأنا أنتظره.....

-هل ستذهبين إلى المكتبة؟!

-وهل يهمك ذلك؟!

-كيف لا يهمني؟!

مضت أكثر من ثلاث سنوات ونحن عالقين في المنتصف ربما أنا وحدي عالقة في المنتصف ولا أفكر بشخص آخر سواه، أنهيت تخرجي من الجامعة وأصبحت معلمة قدمت على فرصة عمل في إحدى المدارس الحكومية، بعثت له رسالة -لقد بدأ فصل الشتاء وما زالت علاقتي بك ماطرة منذ سنوات ولم تزهر أبدا، قرأ رسالتي وبعث لي وهل هنالك أجمل من المطر؟!

-أنت لا تحبني؟!

-لستِ في قلبي لتعرفي إن كنتِ فيه أم لا؟!

-أتحبها؟!

-من؟!

-شهد؟!

-أجل، أحبها كثيرا

-لكنك لم تتزوجها

-ومن قال بأنني أريد الزواج؟!

-هل ستقضي حياتك هكذا بلا زواج؟!

-أجل، لا أريد الزواج

أنهيت مكالمتي به وبدأت أفكر لماذا سيضيع عمري في انتظار شخص لن يأتي، شخص يرفض الزواج ولا يؤمن بأهميته، يريد العيش وحيدا بينما أحلم بالعائلة، أرسل لي رسالة "احبك " شعرت بأن جسدي يتطاير عن الأرض وروحي ترفرف من السعادة، مضى وقت طويل ولم يخبرني بهذه الكلمة أيعقل أنه شعر بحزني، رددت عليه وأنا أحبك، قبل ثلاث سنوات كنت عائدة من الجامعة الأمطار تهطل بغزارة وبدأت الثلوج بالتساقط وحصل هنالك عطل في الباص حاولت الاتصال بأهلي وبسبب سوء التغطية لم أستطع الاتصال بهم وبعد ساعة وصلت رسالتي لهم كان أيمن قد وصل إلي فركبت معه في السيارة.

-لقد كدت أموت من البرد

-خذي معطفي وارتديه

-لا، لا أريد ستبرد أنت

-خذيه ولا تجادلي

أوقف سيارته ووضعه علي، نظر إلى عيوني وقال لا تخافي لن أشعر بالبرد، أرسلت لي والدتي رسالة تود الاطمئنان علي فقلت لها أنني مع أيمن كي لا يقلقوا.

كانت الثلوج تتساقط بينما نتحدث معا، قلت له أريد النزول هنا والوقوف تحت الثلج قليلا فرد علي -أنتِ تمزحين وماذا لو علقت السيارة بنا؟!

هممت قائلة كلامك صحيح لكن حين نصل المنزل سنلعب بالثلج معا ابتسم لي وقال كما تريدين، اتفقنا قلت له -احبك فأوقف سيارته فجأة ظننت أن هنالك عطل ما فقال لي حينها -إنك تمزحين؟! أليس كذلك؟! فقلت له لا لا أمزح إنني أحبك بحق وبحجم السماء نظر إليّ دون أن يتكلم أردت أن أبعد عيوني عنه، أن أنظر إلى الثلوج وهي تتساقط شعرت بأن حرارتي قد ارتفعت وشعرت بالخجل الشديد والارتباك وقلت لنفسي ليتني لم أقل له تلك الكلمة لكنه في لحظتها وضع يده على وجهي وقال لي لماذا تهربين كهذا فقلت له لا أهرب منك، سكت قليلا وقال لي إنني أحبك يا ندى، كانت أول مرة يقول لي أحبك، كان يزداد تعلقي به يوما بعد يوم، أخاف غيابه وأشتهي قربه، ضائعة في المنتصف وكأن الدنيا ضاقت على لقيانا.

ذات يوم كان يتحدث مع والدي وطلب مني أن أحضر الأوراق من سيارته فوجدت فيها هدية ظننت بأنها لي لأنه كان قد اقترب يوم ميلادي لكنها لم تكن لي، كان يوم ميلادي هو أجمل الأيام لدي فقد اعتادت عائلتي على الاحتفال به لكنه كان ناقصا بسبب غيابه، كان ينقصني هو، مر يومين فأرسلت له رسالة تخبره عن يوم ميلادي فرد عليّ متأخرا كالعادة كل عام وأنتِ بخير ظننت بأنه حفظ يوم ميلادي لكنه لم يفعل ذلك، أثارت الغيرة داخلي حين تأكدت بأن الهدية لم تكن لي فسألته عنها فقال إنها لشهد، غضبت كثيرا منه قلت له لم تتذكرني لكنك لم تنساها، أخبرتك بأنني أغار عليك، وفي اليوم الثاني أحضر لي هدية لم أعرف لماذا قبلت بها لكنني قبلت منه كل شيء، ، وكأن لا شيء بيننا لا مسافة ولا وقت ولا أشخاص، أنت الذي جئت مختلفا عن الآخرين شهدت أجمل أيام عمري ولم أتمنى أن أكمل حياتي إلا معك وأن لا أنجب للعالم أبناء إلا منك، كل ما أردته أن نكمل مشوار العمر معا وأن تنتهي طرقاتنا لنلتقي، لم تبرر لي يوما سبب غيابك لكنني كنت معتادة على أن اخبره بتفاصيل يومي، وصلني طرد من الجمعية التي

عملت بها لمدة شهرين وقد أوصله لي غسان وقفت معه عند الباب وتشكرته ثم سألني عن أحوالي وكنت أجيب أسئلته كان اهتمامه لي واضحا ورغم ذلك لم يبادر أن يخطو تجاهي أي خطوة فقد كان ينظر إلي بطريقة مختلفة وكأنني حُرمة في حياته ولا يستطيع أن يتعداها بدون إذن مني، أخبرته يومها عن الطرد وعن غسان لكنه غضب كثيرا مني فأثارت غيرته خوفي وقلقي وبعدها لم يعد يرد على اتصالاتي، كان شعوري بالخيبة يزداد يوما بعد يوم بينما أنا عالقة في علاقة لا أعرف مصيرها ولا يمكنني توقع الآتي فيها وما علي سوى الانتظار.

دق الباب فكان والدي فتحت له فجلس على الاريكة وقال لي :أراكِ حزينة يا ندى هل أنتِ بخير؟! بكيت حينها كثيرا وقلت له أشعر بالاختناق والعيش في هذه القرية، أشعر بأن كل شيء يخنقني ويقيدني ولا يشبهني، حاول حينها أن يخفف حزني وأن يعيد لي ضحكتي التي فقدتها منذ مدة طويلة، لم أكن فتاة بائسة بهذا القدر وحزينة هكذا إلا بعد أن عرفته لقد جعلني أشك بقدراتي على مواصلة الطريق والابتسامة والبساطة والاستمتاع بأدق التفاصيل التي كانت تجعلني أحلق من السعادة، لقد أرهقني كثيرا، أحببته دون قيود لكنه لم يحبني مثقال ذرة من الحب ولم يستطع ذلك.

(أيمن)

السير بشوارع المدينة عادتي حين أشعر بالحب والحزن والخيبة والألم والسعادة بكل مزاجي المتقلب، ذهبت مع شهد للاحتفال بيوم ميلادها أحضرت لها هدية تليق بها وقررت أن أتقدم لخطبتها لكنني تراجعت حين قرأت رسالة ندى "مرحبا أيمن، لقد كان يوم ميلادي قبل يومين ولم تتذكر ذلك "، شعرت بغصة في قلبي لكنني قاومت مشاعري فتجولنا بالسيارة معا وضحكنا وقدمت لها الهدية ثم عاد كل واحد إلى منزله، أرسلت لي رسالة أخرى "لمن الهدية " تفاجأت بمعرفتها بالهدية، تعرف تفاصيل الأشياء دون أن أخبرها، تعرف لوني المفضل وطعامي وأغنياتي، لطيفة جدا وقوية بنفس الوقت.

ذات يوم أرسلت لي أغنية كاظم الساهر أكررها والتي أحبها كثيرا، عرفت أن بإمكانها معرفة كل شيء عني دون أن أخبرها بذلك، أغلقت هاتفي ولم أتحدث معها لم أعد قادر على قيادة الأمور فقد بدأت تتسلل في داخلي وتعبث بقلبي، كانت رسائلها تقتحم أيامي وتذكرني بها بكل ثانية لكنني كنت أرد عليها بعد أم أجعلها منتظرة لوقت طويل، تخطينا ثلاث سنوات وبدأنا السنة الرابعة كنت أراقب غضبها وغيرتها اللامتناهية وتمسكها بي رغم أنني لم أعطيها أي وعد لنبقى أو نستمر.

اتصلت بها وأخبرتها بأنني قررت الزواج من شهد، سكتت كثيرا ولم تنطق بأي كلمة، سمعت صوت دموعها وهي تحاول حبسها قلت لها : هل تبكي فردت لا وأغلقت الهاتف، شعرت بأن انتقامي قد انتهى وأنها لن تشفى أبدأ.

(ندى)

نمت لأسابيع ولم أستطع أن أخطو خطوة على أقدامي، كنت أشعر بأن كل شيء يخنقني ولا قوى لي على التنفس، أحاول أن أتمالك نفسي أمام والدايّ لكن حزني كان عميق للغاية، ماذا فعلت بنفسي؟! لماذا أعاقب بهذا الشكل؟! هل حلمت بحب هكذا يؤلمني....يقتلني....يحزنني إلى هذا الحد، بدأت أنظر إلى المرآة وإلى ملامحي التي كبرت فجأ ولم تعد سعيدة أبدا، ذهبت إلى المطبخ وأخبرت أمي وأخذت أبكي حينها جاء والدي فسمع كلامي مسحت دموعي وذهبت إلى غرفتي بسرعة.

الأفكار تدق عقلي أما قلبي فيؤلني بشدة، فتحت هاتفي أردته أن يتصل بي أن يخبرني بأنها مزحة لكنه لك يتصل، لقد كنت أقبل بكل شيء إلا رحيله، والآن لا أرغب بشيء سوى عودته.

تتابعت الأحزان جاء غسان يخبرنا بأن هنالك حريق في المكتبة فذهبنا مسرعين إلى أن وصلت سيارة الإطفاء وبدأت عملها، بقينا نحاول إنقاذ الكتب التي بقيت، احترقت المكتبة التي صممتها لنا حينها وقعت على الأرض فقلبي لم يعد يحتمل ذلك.

(أيمن)

رن جرس المنزل فكانت خالتي رؤى، تذكرت وصية أمي قبل وفاتها، رحبت بها واستأذنت لعمل القهوة ثم بعدها جلسنا وتحدثنا عن الماضي وعن علاقتها بأمي لقد عرفت بأنها تعرف تفاصيل حياتنا وأكثر مني بكثير، أردت سؤالها عن عمران لكنني تراجعت وبعد أحاديث طويلة وبدأت أرتاح قليلا للكلام معها تشجعت وسألتها عنه لقد تفاجأت بمعرفتي به ثم بدأت تخبرني عنه فقالت لي بأنه استاذ في الجامعة كان يدرسهم الآداب، نظرت إليها نظرة شخص عارف يريد أن يعرف عن علاقة ذلك الرجل بوالدته، شعرت بأنها بدت قلقة من نظراتي ثم قالت لي اسمعني يا بني لقد درست مع والدتك وكانت أقرب صديقة لي وكانت تحب الاستاذ عمران وكان يحبها كثيرا وفي ذلك الوقت بدأت سيرتها على كل لسان في الجامعة كما أن مهنته أصبحت مهددة بسوء السمعة وبأنه يستغل طالباته لكن في الحقيقة كان بينهما كل الحب وكلاهما يعرف حدوده بشكل كبير وواضح، وكان في الجامعة شاب يدرس معنا وقد ألحق الأذى بوالدتك فقد كان يشوه سمعتها بين جميع الطلاب ويلحق بها كثيرا وقد أخبر والدها بذلك فأوقفها عن الدراسة وحبسها في المنزل، وفي ذلك الوقت تقدم لها الاستاذ عمران ولم يقبل به بحجة فارق السن والسمعة التي لحقت بها وبعدها قام باجبارها على الزواج من ذلك الشاب الذي استمر بأذيتها ولم تستطع الطلاق منه بسبب المبلغ المادي الذي أخذه والدها منه وعاشت معه طوال السنوات، لم أستطع تحمل ما سمعته شعرت بالاختناق الشديد وحين تركتني الخالة رؤى وذهبت تمنيت أن يكون هذا حلم...أن ينتهي....

بدأت أمر بندى وماذا فعلت بها، في وقت متأخر لم يعد باستطاعتي إصلاح أي شيء، صورتها لم تفارقني، لقد ظلمت أمي وظلمتها معي، لقد سرقت منها ضحكتها وقلبها المليء بالحياة، لقد خسرت كل شيء.

حلّ الظلام، ركبت سيارتي وذهبت إلى المقبرة أردت التحدث مع أمي، لم أفهم تصرفاتها ولا سبب حزنها إلا في وقت متأخر، ليتني أستطيع إصلاح علاقتي بها..... بكيت كثيرا ثم ذهبت إلى ندى وحين وصلت القرية وجدت أن هنالك تجمع كبير وحديث بين الناس " لقد احترقت المكتبة " كادت دقات قلبي أن تتوقف عن النبض، كل شيء فيني ينادي اسمها "ندى "

وصلت المستشفى فوجدت السيد عمران وزوجته وغسان يقفون في الخارج لم يقبل أحد وجودي بل غضوا النظر عني ولم يردوا التحية علي، كان تجاهلهم لي يكسرني ويؤلمني ويشعرني بالذنب، قلت لهم أريد إصلاح كل شيء لكنهم لم يسمعوا كلامي، نظرت إلى ندى فكانت الدموع تملأ وجهها قلت لها أريد التحدث معك فقالت لا أريد منك شيء، قلت لها أريد أن أصلح كل

شيء، أن نبدأ من جديد لكنها أدارت وجهها عني وبقيت صامته، نظرت إليهم وقلت لهم أرجوكم أريد التحدث معها لوحدنا وبعد تردد قبلوا بذلك، جلست بالقرب منها مسكت يدها وقلت لها أرجوكِ أريد أن تسامحيني وأن تقبلي بي أريد أن أتزوجك وأن تكوني أما لأولادي، بكت فسحت دموعها وقلت لها لا تبكي يا صغيرتي، قالت لها هل ستتركني مرة أخرى، ضحكت وقلت لها لن أتركك أبدا....

خرجت من الغرفة وتحدثت مع والدها وأخبرته بالقصة كاملة وعرف كل شيء ثم قبل بزواجي من ندى، قصتهم التي أكملناها، تزوجت ندى ورزقنا الله بثلاث أطفال، كنت أستودعها الله كل حين أن يحفظها لي وهو خير الحافظين، ومضت الحياة بنا نتقاسم المسؤولية معا نجتمع على الحب والخير والسرور.

محطة القطار الثالثة

سكة سفر(٣)

عدت أجلس في مقعدي ما زال القطار مستمر في السير، أحمل في داخلي الكثير من الأحلام والأمنيات، وضعت الساعة في حقيبتي وقررت أن أقدمها هدية لأمي، لطالما عرفت أهمية الوقت وأهمية إدراك الأمور قبل فوات الأوان، وتأكدت أهمية العفو والتسامح والتخلي عن الكره والغضب والانتقام الذي يشوه حياتنا ومحاولة المضي بسلام على هذه الأرض.

أخرجت شالا من الحقيبة وضعته لي أمي وقالت بأنني سأحتاجه إن اشتد البرد ثم أخرجت كتابا وبدأت قراءة القصائد لجلال الدين الرومي وشمس التبريزي، أفكر بالحياة بشكل أوسع كيف أنها تكون بسيطة إن فهمنا المغزى منها وكيف تتعقد إن لم نحسن فهمها، نظرت إلى يميني فوجدت إمرأة في الخمسين من عمرها لم تتوقف عن السعال والعكس قمت من مكاني وذهبت إليها أعطيتها الشال والدواء فهمي لم تترك لي شيئا إلا وقد وضعته لي، مددت يدي لأعطيها الدواء فرفضت ذلك قالت بأنها لا تتناول الأدوية فورا حتى يقاوم الجسد المرض بنفسه أولا، احترمت وجهة نظرها وقلت لها لكن لا ترفضي الشال ضعيه على جسدك ابتسمت وقبلت بذلك ثم عدت إلى مكاني وبقيت أراقب وضعها الصحي، وفي المساء كان الجو يزداد بردا وتزداد ألما فأخذت الدواء مرة أخرى إليها فقالت بذلك، ثم بعدها وضعت الغطاء على نفسي ونمت حتى الصباح وحينما استيقظت تفاجأت بعدم وجودها فذعرت وقمت من مكاني للبحث عنها فوجدتها قادمة من ناحية المطبخ فارتحت قليلا سألتها عن حالها فقالت أنها بخير، طلبت أن أجلس معها فوافقت على ذلك.

العمة : اسمهان

العمر :54

العمل : ربة منزل

الحالة : مطلقة

إن حب الأب عظيم لا يمكن لرجل أن يحبك كما يحبك والدك إنها المقولة التي كانت ترددها أمي على مسامعنا، لقد كنت طفلة ولم أفهم كلامها، عشت طفولتي بطريقة جميلة لم تحظى بها أي فتاة على هذه الأرض، كان الصباح فيها عيد وكل يوم أشعر بأنني غارقة في السعادة، أتابع شروق الشمس وغروبها أغني الحياة وأنشد أيامها، لم أشعر يوما بمعنى الفقدان أو الحرمان لطالما كنت آخذ كل شيء أريده وأذهب إلى الأماكن التي أحبها مع عائلتي، لم يطرق الخوف بابي ولا حتى الأحزان لقد كنت أشعر حين أفتح باب المنزل بأنني حمامة تستطيع التحليق والطيران، كبرت بسرعة لدرجة لم ألاحظ كيف مرت الأيام بي حتى بدأت أتخبط بالأرض ولم أستطع الطيران أو التحليق.... كلما مرت أيامي شعرت بأن قدمايّ تثقلان وبأن حياتي تشبه الأشجار في فصل الخريف يتساقط ورقها ورقة تلو الأخرى في انتظار فصل الربيع لتزهر من جديد.....

تزوجت من عزيز وفي ذلك اليوم كان عائد من العمل فقال لي: اعطني فاتورة الكهرباء، حينها لم أعرف مكانها فقد كنت مشغولة بتدريس الأولاد ونسيت أين وضعتها فقال لي أنتِ امرأة غير مسؤولة، كان يبحث عن حجة ليؤذيني بالكلام بكل فرصة تسمح له بذلك لكنني لم أكن أسكت له وأقبل بذلك فرددت عليه بسؤال أين كنت بالأمس؟! وبعدها أعطيته الفاتورة أخذها مني وقال لي لا تسألي عني، لا يهمك ذلك، كأن رجل يتصرف بغطرسة وأنانية وفي قلبه كره كبير لي وكان يتمادى أحيانا ويضربني، لم يكن لدي حل إلا الصمت والبكاء وإكمال حياتي هكذا.....

جاء ابني يوسف يشتكي آلام في بطنه فأخذته إلى المستشفى بعد أن طلبت من جارتي أسماء أن تجلس عن الأولاد لحين عودتي، ظننت الأمر بسيط لكن بعد التشخيص قال الطبيب بأن علينا إجراء عملية لازالة المرارة، سألت الطبيب عن خطورة الأمر فقال لي لا تخافي وتوكلي على الله، عدت إلى المنزل فأخبرت أسماء بوضعه الصحي وانتظرت عودة عزيز الذي لم يهتم لابنه بل بدأ يحسب تكاليف المستشفى ويقول من أين سأدفع التكاليف ولم يتوقف عن كلامه السيئ لي وللأولاد، غضبت منه كثيرا وقلت له عليم توقيع أوراق العملية لا تهتم بالمال سأدفعه لوحدي، كان يقول لي دوما هل تعتقدين أنني أملك مالا كما هو والدك؟! كان كلامه ناقصا لأنه لو ملك كل مال الدنيا لما كان مثل والدي، جلست وحيدة أفكر بحياتي التي تنحدر من تعاسة إلى تعاسة أخرى.

منذ أن تزوجته وأنا بحاجة لاستيعاب ما يدور حولي، لطالما حلمت بحياة مستقرة وهادئة تشبه عائلتي في السابق، لقد حلمت حلما وأعيش الآن واقعي مع عزيز.....

نجحت عملية يوسف وبشرني الطبيب بذلك، كلما نظرت إليه أشفقت عليه تمنيت لو أنه عاش طفولة تشبه طفولتي، تمنيت لو أن باستطاعتي اسعاد الأولاد.

البدايات لا تشبه المنتصف والمنتصف لا يشبه النهايات، في بداية زواجي كان معاملة عزيز معي جميلة لكنني لم أعرف أنها لمصالح مادية يحصل عليها من والدي، ذات يوم كنت أسير معه في الحديقة وجاء ابن عمي ليسألنا عن والدي فاستغربت السؤال فأخبرنا بأنه تم حجز جميع أملاكه أصابني الخوف والقلق وذهبت إلى منزل والدي فلم أجد أحد، تفقدت جميع الغرف ولم يكن هنالك أحد جلست على الأريكة إلى أن أخبروني بأن والدي في المستشفى فذهبنا إليه وفي ذلك اليوم توفي والدي وخسرنا كل ما نملكه لم أستوعب أي شيء، شعرت بأن الضلع الذي استند عليه قد كُسر.....

بعد وفاة والدي ظهرت معاملة عزيز الحقيقة لي وبدأ يتجبر ويظلم ويؤذيني، شعرت بغصة وحزن في قلبي بدا يسكنني، بعدها تعلمت حياكة الملابس والتطريز للمفاهمة في مصاريف المنزل، ذات يوم ذهبت إلى البريد لدفع الفواتير ولم أكن أعرف ذلك حينها نظر إلي من حولي بتعجب، فأنا عشت فتاة مدللة والآن أحاول فعل كل شيء لوحدي.

جاءت سيدة وأخذت ثوبها ودفعت لي النقود، تذكرت كم كنت أشتري ثياب غالية الثمن، كم وكم وكم؟! بدأت بتدريس ريم إلى أن جاء عزيز أخذ النقود عن الطاولة وأراد المغادرة قلت له سأشتري ثياب للأولاد، أترك النقود لكنه لم يسمعني بدأ يشرب الكحول ويعود منطفئ آخر الليل وقد طرده صاحب كراج السيارات لسوء معاملته مع الزبائن، تتابعت المشكلات والأزمات لذلك قررت الانفصال عنه وطلب الطلاق وقد استغرق الأمر وقتا طويلا مني.....

شعور الأمومة جعلني أتحمل المسؤولية فمهما واجهت من صعوبة الظروف أتكأ على نفسي أكثر وأكثر، في منزل والدي حتى بعد فقرهم ما زالت العلاقات مترابطة وقوية مليئة بالحب والصفح، قارنت حياتي بهم فوجدت أنني مهما حاولت مع عزيز فهو لن يتغير أبدا كما أن تخليه عن مسؤولياته جعلني اضطر للبحث عن عمل فبدأت البحث، قدمت للمدارس والجمعيات للعمل معلمة أو أي مهنة لكنني لم أجد كان من الصعب لعدم وجود سنوات من الخبرة معي وفي الطريق وجدت اعلان للعمل في بيع الملابس شعرت بفرحة في داخلي، رحب بي صاحب العمل وحين سألته عن الإعلان همم قائلا أجل وتستطيعي العمل من الآن وقدم لي عرض ممتاز لساعات العمل والراتب فطلبت أن أبدأ من الغد فقبل بذلك.

انتظرت عودة عزيز لأخبره بالعمل لكنه رفض ذلك لكنني لم أهتم له لأن ذلك رغبتي وليست رغبته وفي الصباح جهزت الأولاد للمدرسة ووضعت ندين عند أسماء وذهبت إلى محل الملابس في البداية كان كل شيء يناسبني، أعمل بشكل جيد وأعود إلى المنزل واهتم بالأولاد لكن ذات يوم وجدت رائحة عطر نسائي على قميص عزيز سألته فلم يرد علي حينها قررت الانفصال عنه وطلب الطلاق وبدأت الإجراءات...

ذهبت إلى العمل وكنت مرهقة كثيرا فسألني صاحب المحل لكنني لم أكن لأفتح أي حديث معه مهما حدث، توالت الأيام واذا به يقدم لي هدية فرفضت منه ذلك شعرت بأن ملامحه قد تغيرت وبدأ الغضب يظهر على ملامحه، لماذا يعرض عليّ الهدايا، لقد قررت ترك العمل عنده شعرت بأنه نواياه تجاهي قد تغيرت لكنني عندما عدت إلى المنزل أخبرتني أسماء بأن علي دفع الإيجار فقلت لها بأننا لن نستطيع دفعه هذا الشعر فقد صرف عزيز كل ما نملكه على الخمر وقد تعرف على سيدة وبدأ بدفع المال لها، تمالكت نفسها وقالت لي اطلبي الطلاق فورا، لا داعي لاكمال العيش معه.

بعض القرارات التي نأخذها في حياتنا تكون خاطئة وبعضها تكون صحيحة مئة في المئة، فالطلاق ليس مشكلة بل حل للمشكلات التي تفاقمت، لقد قررت العمل والاتكاء على نفسي من أجل توفير حياة كريمة للأولاد، فلم تعد مشكلة الفقر هي المشكلة الوحيدة في المنزل بل أصبح العنف يزداد ويمس الأولاد وصحتهم ونفسيتهم، لم يتحمل عزيز فكرة الطلاق فقد جن جنونه حاول منعي بأي طريقة لكنه لم يستطع.

جاء صاحب البقالة يطالبني بدفع الديون المتراكمة علينا، كنت قد قررت ترك العمل عند محل الملابس لكنني قررت بعدها إكمال الطريق رغم مخاوفي من صاحب المحل، وقفت عائلتي إلى جانبي استأجرت منزل بالقرب من منزل أخي وانتقلنا للعيش فيه، كان الأمر في غاية الصعوبة كما أن مخاوفي والمسؤولية ازدادت علي في تلك الفترة.

أما في العمل فقد أصبح صاحب المحل يريد التقرب مني بأي طريقة كما أنه كان يحاول خلق حديث معي لكنني كنت أرد عليه الطريق لكنني لم أتجرأ على ترك العمل إلا بعد إيجاد فرصة عمل أخرى، ذات يوم أخبرني بأن علي التأخر قليلا فهنالك شحنة ملابس قادمة فرفضت ذلك وقلت له بأن عندي أبناء ولا أستطيع التأخر أكثر عنهم همم قائلا بتعجب وقال لي وأم جيدة اقترب مني أكثر فشد على يدي وقال لي لن أتركك لتذهبي إلى أي مكان، أفلت يدي من بين يديه وقلت له اتركني، اتركني علا صوتي وتحولت إلى امرأة قوية ضربته بالحقيبة على رأسه وهربت، ركضت في الشوارع أريد أن أختبأ في أي مكان، شعرت بأن المكان يضيق بي ويحبس

أنفاسي، بكيت كثيرا لأول مرة أشعر بالانكسار في داخلي تمنيت لو أنني أموت.....أندثر.....أن تنتهي حياتي وفجأة تذكرت أولادي ركبت السيارة وعدت إلى المنزل ولحسن الحظ كانت عندهم ميرفت زوجة أخي.

مضت ثلاثة أيام حاولت أن أعوض غيابي لهم فأخذتهم إلى المنتزه، تفاجأت بوجود عزيز مع امرأة لم ألتقي به منذ طلاقنا، لم أكترث له لكنه أصر على أن يسير بجانبنا ثم وقف وتحدث معي قال بأنها زوجته وبأنه سيرفع قضية لحياة الأولاد، سمعت كلامه ولم أهتم فهو كعادته لا يستطيع فعل أي شيء سوى الكلام....

عدنا إلى المنزل قبل غروب الشمس بينما كانت العائلات لا تزال تتوافد إلى المنتزه، التقيت في الطريق بصاحب البقالة والجار القديم لبيت أهلي أراد مساعدتي في حمل حقائب الأولاد وسألني إن كنت أبحث عن عمل وعرض علي العمل في الصالون مع زوجته قلت له بأنني لا أملك أي معرفة بذلك لكنه قال لي بأن زوجته ستعلمني كل شيء فرحت كثيرا بذلك، شعرت بأن الله يغلق باب ويفتح أبواب أخرى، عندما وصلت المنزل وأغلقت الباب شعرت بأن حياتي بدأت تتزن وبدأت أعيد ترتيبها بالشكل الصحيح.

بدأت العمل في الصالون في البداية أخذت مهنة التنظيف والترتيب ثم تعلمت مستلزمات التجميل، ثم سلكت بي الحياة طرقات عديدة وشعرت بأن شخصيتي أصبحت أقوى وتأكدت بأن لا شيء يبقى للأبد فهنالك أحداث تتغير باستمرار وتجعلنا نحاول التكيف معها والاستمرار في العمل والعطاء، دفعت الفواتير والديون المتراكمة.....مرت الأيام والسنوات كبرت ابنتي الصغيرة ندين درست المدرسة ثم الجامعة، يوسف خريج الصحافة والاعلام وقيس استاذ العربية ولارا ممرضة كان أكبر انجاز لي في الحياة أنني عشت لأجلهم.

جلست على مقعد مسرح التخرج وبدأت أتأمل العابرين شعرت بأن حياتي تشبههم فكم مرت بسرعة بصعوبة وتحديات لكنها مرت، في الماضي كان يتكئ علي واليوم أتكأ عليهم أفخر بنجاحهم فسنوات الحصاد تنسي سنين التعب.

اتصلت بي مديرة الروضة التي عملت بها بعد عملي في الصالون، تم تكريمي لأكون من أفضل المعلمات فيها فلم أكتفي بزرع الأمل لأولادي بل للجميع، وقفت عند منصة فنظرت أبنائي في الصف الأول وغيرهم من الطلاب الذين درستهم وفرحت لنجاحهم، عرفت بأن بإمكان كل شخص أن يبث الأمل في قلوب الآخرين، فنحن لم نخلق لنعيش تحت الظلم والعنف فكل واحد

يستطيع بالعزيمة والإصرار أن يبدأ طريقه بالخير وأن يلجأ إلى الله في كل وقت وحين ليمده بالقوة والثبات والصبر.

الوقت حين يمضي يأخذ من أعمارنا وصحتنا، تجاوزت عمر السادس والخمسين بدأت أشعر بالتعب حين يأتي الأولاد وزوجاتهم والأحفاد، أصبحت أتابع تحركات الأطفال وهم يكبرون ويتغيرون وينضجون، اعتدت على عمل الحلويات كل خميس وحين اجتماعهم، مضى وقت أطول.....جاء راشد ليأخذني إلى الطبيب فقال لي جدتي هل الأوراق هنا فقلت له أجل اتكأت عليه وذهبنا كان فحوصات دورية وشهرية أخذت دواء الضغط والسكري وعدنا إلى المنزل، رافقني إلى غرفتي وبعدها أطفأ النور وأغلق الباب لأرتاح.

لقد أصبح الأحفاد هم من يعتنون بي ويقبلون عليّ بحفاوة، اسمع قصصهم وأعرف تفاصيل حياتهم أكثر من أولادي لكنني سعيدة جدا لأنني ما زلت مصدر الهام لهم وللعائلة.

استمتعت كثيرا وأنا استمع قصة السيدة أسمهان شعرت بأن علي الإكثار من الحمد مهما عصفت بي الظروف وأن علي تجديد الأمل في داخلي والتخلي عن القلق والخوف الدائم والمستمر معي، قررت الإقبال على الأمور بقوة وعزيمة دون الخوف من الفشل وضعت ملاحظة على دفتري "عليّ النجاح في كلية الحقوق وتحقيق الأهداف " تركت السيدة أسمهان لترتاح قليلا ثم عدت إلى مكاني أفكر بالجهد الذي علي بذله من أجل التخرج من كلية الحقوق وكم أنها تناسبني كثيرا فأنا أحب العدالة والانصاف في كل شيء وأن يأخذ كل شخص حقه في الحياة وحريته، نسيت أن أسأل عن عزيز وكيف أمضى حياته بدونهم وهل شعر بالندم أم لا، انتظرت حتى الصباح توقف القطار عند المحطة أما أنا بقيت في مكاني، ثم بعد أن سار القطار عدت أجلس مع السيدة أسمهان سألتها عن عزيز وماذا جرى له فقالت لي بعد تنهيدة طويلة : عزيز، لم يبقى له مكان في ذاكرتي ولا في قلبي، لقد تزوج بعدها ورفع قضية ضدي لأخذ الأولاد ولم يتركنا نعيش بسلام فقد كان يستمر في إلحاق الأذى بنا بين الحين والآخر، لذلك اسمعي يا ابنتي بعض الأشخاص تبقى مكانتهم في الذاكرة أينما رحلوا بقوا في قلوبنا وبعض الأشخاص ننسى وجودهم وكأنهم لم يكونوا يوما في حياتنا، فالأفعال تؤكد صدق المحبة وكما يقولون من يحبك يبقى معك للأبد.

(محطة القطار الرابعة)

(سكة سفر 4)

من يحبك يبقى بجانبك للأبد المقولة التي لفتت انتباهي هل كل الذين تركونا لم يحبونا يوما، وهل ظروف الحياة تجبر الآخرين على المضي بطرقات لا تلتقي معنا، أتسائل لماذا نمر بتجارب صعبة ومؤلمة ولماذا لا تكون كل طرقاتنا سعيدة، أفكر كثيرا في قدرتي على التخلي والمضي بطرقات لا أجد فيها من أحب، غفوت قليلا واستيقظت على صوت سيدة تطلب مني أن تجلس بجواري عدلت جلستي وقلت لها تفضلي ثم انشغلت بالتدقيق في ملامحها، جميلة جدا وجهها مستدير ولون خديها وردي، عيونها واسعة جميلة جدا.

-ما اسمك؟!

-مريم

-اسمك جميل، يشبهك تماما

ابتسمت لي وكأنها البدر، كانت تكتب ملاحظات على دفترها وتحاول تذكر شيء ولا تستطيع، نظرت إلي وقالت نسيت بعض الملفات في المكتب وتذكرتها الآن، قلت لها لقد سار القطار مبتعدا عن المحطة ولا أظن أن بإمكانك النزول الآن فردت أجل، لكن سأنزل عن أول محطة لتكون عودتي أسهل بعض الشيء.

سألتها عن عملها فقالت إنها تعمل محررة وصحفية في المجلة.

بعض المواقف تبقى عالقة فينا ومهما سارت بنا الحياة تبقى حاضرة في أذهاننا، فكيف تحولت من ممرضة إلى صحفية وكيف خلفت الأزمات التي عشتها ضجيجا في داخلي لا يهدأ، وكأن جميع الفصول تحدث في داخلي كأنها فصل واحد، تذكرت والدي ذلك الشيخ الكبير الذي يجلس على مقعده والذي كرس حياته لأجلي وكان يحاول دوما تعويضي عن أكي التي توفيت أثناء ولادتي، ولم أنسى مقولته على الدوام لقد رزقني الله مريم والحمد لله وبها اكتفيت، كان يقول بأنه يرى لي مستقبلا جميلا وأنني ذات يوم سيكون لدي شأن عظيم.

حظيت بطفولة جميلة وحين بدأت أرتاد المدرسة كان يوصلني والدي بيديه يحمل حقيبتي على كتفه ونسير معا وأثناء عودتي كنت أراه في المقهى مع أصدقائه وحين أدخل المنزل تستقبلني جدتي بحفاوة وحب، منزلنا هادئ وجميل وفي المساء يزورنا عمي وزوجته وأولادهم والتي كانت دوما تشعرني بالحب والاهتمام، كبرت وأصبحت في الثانوية أسير في الطرقات نفسها

أراقب العصافير والحمام في السماء، أشتري اسطوانات الموسيقى التي أحبها، زاد اهتمام والدي حين اقتربت الامتحانات فهو يريد مني النجاح والتفوق وقد كرست كل وقتي من أجل الحصول على منحة دراسية حتى لا يضطر والدي للعمل كثيرا من أجل دفع تكاليف الجامعة، وقفت عند المرآة فوجدت أن وجهي يزداد جمالا أتخيل والدتي هل حقا أشبهها؟! كلما كبرت ازدادت رغبتي بوجود أمي إلى جانبي فدائما أسمع الفتيات يتحدثن عن أمهاتهن ومع ذلك أتباهى بوجود والدي معي في كل وقت، نجحت وتخرجت من المدرسة ثم الجامعة وحصلت على وظيفة ممرضة عند الطبيب غارسيل الذي يسكن بالقرب من منطقتنا، كان الطبيب في الخمسين من عمره وكان يعاملني بلطف وكنت أحاول التعلم منه كل شيء حتى أتمكن من مساعدته بشكل كبير في الحالات الطارئة، كان يعامل المرضى بشكل متواضع ويراعي أوضاعهم المادية قال لي ذات يوم بأن اسمي جميل وأنه يحب الأسماء العربية أخجلني لطفه ومعاملته بحب معي، كان يقول عن العلاقات في الأسر العربية بأنها وطيدة وقوية ومتينة أما في أوروبا فقد عاش سنوات وحيدا بعد وفاة زوجته ميلا التي أحبها كثيرا، كان يتحدث عن الحب بابتسامة عريضة وحين كان يساعد أحد ذلك لأنه يذكره بزوجته، أخبرني ذات يوم عن المرض الذي أصابها ولم يستطع دفع تكاليف علاجها، كما أن أخبرني عن هواء الصباح في لندن وضجيج المدينة واكتظاظ السكان، مضت ثلاث سنوات بالعمل عنده تغيرت الظروف السياسية والاقتصادية في الدول العربية ظهرت جماعات إرهابية وانتشرت الأمراض وازدادت الكوارث الطبيعية، أصبحت العيادة تمتلئ بالرضى، ازدادت ساعات عملي، أصيب والدي بفيروس كورونا الذي ارتاح العالم وتسبب في إغلاق المدن وفي الحجر الصحي، كنت أحاول إنهاء دوامي بسرعة كبيرة للاطمئنان عليه وذات يوم عدت فوجدت المنزل مبعثر وقد انقلب رأس على عقب ولم يبقى شيء في مكانه سألت والدي فأخبرني أنها جماعة إرهابية إنهم يراقبونه في كل وقت كما أنه تعرض للضرب المبرح على أيديهم بحجة أنه يذهب للجامع كثيرا وقد اتهموه بأنه ينظم حزب سياسي، انزعجت كثيرا منهم وبدأت معالجة جروح والدي، بعدها عدت إلى عملي كانت الشوارع تكاد تخلو من السكان فالجميع في حالة من التأهب والخوف فقد وصل الإرهاب كل مكان، بدأت أساعد الطبيب كانت الاصابات خطيرة ومتوسطة جميعهم مدنيين ليس لهم أي علاقة بأي حزب أو مؤسسة سياسية أو حكومية لكن الإرهاب يقتصدهم بشكل كبير، أسندت ظهري على الحائط وأردت أن أرتاح قليلا، لقد تعبت كثيرا.....

تعرضت للخطف من قبل جماعة إرهابية....قتلوا والدي ولم يتركوني أكمل حياتي، حاولت الهروب منهم ولم أستطع لكن ساعدني أحدهم وهربت منهم ذهبت إلى منزل الطبيب غارسيل الذي ساعدني في الهروب إلى أوروبا بطريقة غير شرعية بعد أن بقيت في منزله لمدة أسبوعين،

لم يكن مسلما لكنه كان يتعامل بأخلاق المسلمين وكان يحترم وجودي في المنزل فلم يدخل الغرفة الا بعد الاستئذان كان يحترم خصوصيتي كثيرا ويحافظ على ذلك، تعلمت منه الكثير من الحب ومساعدة الآخرين بغض النظر عن دينهم وعرقهم ولونهم، لقد كان رجل مثالي بالنسبة لي، في تلك الليلة وبعد أن تناولنا وجبة العشاء وبدأت بتنظيف الطاولة قال لي عزيزتي مريم سيأتي صديق لي من أوروبا وستذهبين معه وهنالك ستعملين وسيهتم بك كثيرا فالوضع خطر عليك ولا أريد أن يصيبك أي مكروه.

ذهبت مع أنطوان وعملت في إيطاليا لمدة عامين وبعدها أصبح لدي حلم آخر، أن أكافح وأعمل من أجل الآخرين وأنقل للعالم معاناة الأشخاص في الحروب وفي الكوارث وغيرها.....كما كتبت عن المرأة والطفل في أفريقيا وشرق آسيا وكيف يمكن تقديم المساعدات لهم وأثناء سفري التقطت العديد من الصور فمثلا هذه امرأة تشعل الحطب وأولادها حولها في أفريقيا وكانت تحكي لهم الحكايا لقد شعرت بأن جميع الأمهات يتشابهن في الحب وفي العطاء، وهذه صورة لطفل يبيع غزل البنات في الشوارع، وهذه طفلة تبكي تريد شراء الحلوى ولا يملك والدها النقود، وهنا سيدات يعملن في حياة الملابس وهذا الطفل يعمل رسام عند سكة القطار.

بدأت أنظر إلى الصور مع مريم وارسم قصصهم في مخيلتي، في هذه الحياة لكل منا حكايته الخاصة فلكل واحد ظروفه وأشخاصه وأفكاره، فحين ننظر من بعيد نظن بأنها في غاية الجمال وكلما تعمقنا عرفنا الجنود المجهولين خلف كل حكاية، كل واحد منا عاش قصته فشل كثيرا حتى نجح، تعرض للخيبة والألم...انكسر كثيرا... وانعزل كثيرا....

ففي كل مرحلة من حياتنا ننضج ونكبر ونتغير بسبب الظروف التي نمر بها فكل القصص التي نعرفها ناقصة لأن كل واحد منا له آلامه الخاصة به ووجعه الذي لم يخبر به أحد، ذات يوم نسأل أنفسنا لماذا يقل عدد الأشخاص الذين نعرفهم كلما مضى بنا العمر ولماذا تتغير اتجاهاتنا واهتماماتنا، هل لأننا نتعلم مما نمر به ولأننا نصبح بحاجة أكثر للبحث عن سعادتنا، نصبح أكثر تجنبا للخيبة ولأي شيء يسبب لنا الألم.

هنالك قصص بقيت مدفونة بين اصحابها وماتت واندثرت مع مرور الوقت وهنالك قصص تبقى عالقة مهما مر عليها الزمان نمر عليها لنأخذ العبرة منها، أما أنا فقصتي لم تنتهي ومازالت رحلتي مستمرة أحاول الاستمتاع بكل شيء من حولي واراقب تفتح الزهور في فصل الربيع.

تم بحمد الله

فهرس المحتويات

مقدمة 2
الفصل الأول 3
محطة القطار الأولى 12
سكة سفر (1) 12
محطة القطار الثانية 26
سكة سفر (2) 26
ندى 29
أيمن 34
ندى 41
أيمن 47
أيمن 49
محطة القطار الثالثة 51
سكة سفر (3) 51
محطة القطار الرابعة 57
سكة سفر (4) 57
فهرس المحتويات 60

"ليس باستطاعتك أن تغير أقدار الله لك لكنك تستطع أن ترضى بها "

من أعمال الكاتبة فاطمة الكحلوت:

- ذاكرة يبللها المطر.
- أنثى لا تنسى.
- أين تباع السعادة

حقوق النشر والتصميم محفوظة

1444هـ - 2023م